أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع

تأليف
الدكتور عبد العال سالم مكرم
أستاذ النحو العربي
بجامعة الكويت



مؤسسة الرسالة

أثر العقيدة
في
بناء الفرد والمجتمع

الطبعة الأولى

١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب ٧٤٦٠ برقياً بيوشران

أثر العقيدة في بناء الفرد والمجتمع

تأليف
الدكتور
عبد العال سالم مكرم
الأستاذ بجامعة الكويت

مؤسسة الرسالة



تمهيد

العقيدة في الإطار اللغوي:

مادة: «عقد» في لسان العرب تحتمل معاني متعدِّدة، والذي يهمنا من معانيها أنها تأتي بمعنى: العهد المؤكد، يقال: «عهدت إلى فلان في كذا وكذا»، وتأويله: ألزمته ذلك، فإذا قلت: «عاقدته، أو عقدت عليه» فتأويله: أنك ألزمته ذلك باشتياق[1]. والعقيدة على هذا المعنى عهد مؤكد بين العبد وربه، جوهره: التصميم والعزم، وقوة التنفيذ.

وتأتي «عقد» بمعنى البناء يقال: عقد البناء بالجصّ يعقده عقداً: ألزقه، وكذلك البناء الإنساني ينهار إذا لم يعقد بما يحكمه، ويصونه من الانهيار.

والعقيدة في ضوء هذا المعنى حصن لبناء الإيمان، يشدّه بقوة حتى لا يكون عرضة للسقوط أو الانهيار.

وهناك معان أخرى لهذه المادة وكلها تصبّ في مجرى واحد وهو الالتزام بالأمر، والالتصاق بالعهد، والتفاني في التنفيذ.

---

(١) انظر: لسان العرب (عقد).

الفصل الأول

عناصر العقيدة

إن للعقيدة عناصر تتكون منها لتنبعث منها طاقة دونها كل طاقة، وقوة دونها كل قوة، إنها طاقة تصل الأرض بالسماء، وقوة لها من الإمكانيات ما تستطيع به أن تصلح هذا الكون بالأشعة التي تنبعث منها لتبدد الظلام، وتبعث النور، وتحيي ما مات من القلوب، وما فسد من الضمائر.

وعناصر العقيدة في نظري تنحصر فيما يأتي:

الفطرة ـ العقل ـ الغيب ـ الشرع:

وسنتناول بالشرح والتحليل هذه العناصر عنصراً عنصراً في إيجاز، لأن عنوان البحث في حقيقة أمره هو الإسلام كله، وهل يستطيع قلمي القصير أن يستوعب الإسلام كله؟ مهما تعددت الأقلام وسالت أثلاثها بكل المعاني والأفكار تعجز عن الإحاطة بمثل هذا الموضوع، ولكن كل ما نملكه في هذا البحث أن نشير، وفي الإشارة ما يغني عن العبارة.

أولاً: الفطرة:

حينما يجيل الإنسان نظره في هذه الحياة يرى أنه جرم صغير بالنسبة للكثير من المخلوقات، وأين هو من السماء التي فوقه، والتي تزخر بالأجرام السماوية التي لا يحيط بها عقل، أو يستوعبها فكر، وكل جرم منها يشهد بعظمة مبدعه، وقوة خالقه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾[1].

وأين هو من الأرض التي يمشي عليها؟ وهي في كل حركة من حركاتها، وفي كل لون من ألوانها، وفي كل خَلْق من مخلوقاتها تسبّح له، وتسجد له خضوعاً وانقياداً، وذلاً وطاعة، تعطي عباده ما وهبها الله من ثمرات الخير ما يملأ الحياة بهجة، والكون سعادة.

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا

---

(١) سورة النازعات: الآية ٢٧ ـ ٢٩.

حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾(١).

وفي زحمة هذا العطاء المتدفق قد تهب الأعاصير، وتثور الرياح، وتتزلزلُ الأرض، وتضطرب الجبالُ، وترعد السّماء، فيلتفت الإنسان يميناً وشمالاً، يصعّد بصره إلى السماء، ويجيل نظره في الأرض ليجد القوة التي تحميه، فيشعر من قرارة قلبه، ومن أعماق نفسه أن هناك قوة وراء هذه القوى الكونيّة تقول للشيء: كن فيكون، وبالركون إلى هذه القوة يتسرّب الهدوء إلى نفسه، والاطمئنان إلى قلبه، والثّبات إلى أعصابه، فلا يجزع حينما تهب الأعاصير ولا يضطرب حينما تتحرك الزّلازل، ولا يخاف حينما تُرْعد السّماء، نعم إنه لا يعبأ بكل ذلك لأن وراء هذه الظواهر قوة تحميه من عوادي الطبيعة، وكوارث الكون.

وبفطرة الإنسان تملأ هذه القوة فراغ نفسه، وجوانب قلبه لأن «فكرة الله خالقي وأنا عبده منقوشة في اللاشعور الإنساني، وهي ميثاق سرّيّ مأخوذ على الإنسان منذ يومه

---

(١) سورة يّس: الآية ٣٣، ٣٤، ٣٥.

الأول، وهو يسري في كل خليّة من خلايا جسمه، وعندما يفتقد إنسانٌ ما هذا الشّعور يحس بفراغ عظيم، وتطالبه روحه من أعماقه أن يبحث عن إلهه الذي لم يره قط، والذي لو وجده لخرّ راكعاً على ركبتيه ثم ينسى كل شيء»[1].

وبالفطرة تتوارد خواطر في نفس الإنسان أمام هذا الكون العظيم الذي يقف فيه حائراً مدهوشاً، وهي خواطر في شكل أسئلة يحاول أن يجد لها حلاً.

من أنا؟ ما الكون؟ لم جئت؟ وإلى أين سأنتهي؟ ما مركزي في الوجود؟ ما قيمتي في الحياة؟.

كل هذه الأسئلة تحوّله إلى باحث عن القوة العظمى التي يركن إليها، ويرمي نفسه في أحضانها لتحميه من كل شر، وتصونه من كل سوء، وتعيد لقلبه المضطرب دقاته المتزنة، ليشعر بالدفء والسكينة والأمن.

إن البحث عن الإله فطرة أو عنصر إلهي مركّب في طبيعة الإنسان ليشده دائماً إلى التطلع إلى السماء، ويحرّكه دائماً إلى مصدره الأول وهو الله ولهذا نجد بعض الفلاسفة يقول: «إن الميل إلى الله شهوة حقيقية في طبيعتنا الإنسانية لا تقل عن شهوتنا إلى الطعام. وإن المتجه إلى الله كالعطشان في

---

(١) انظر: الإسلام يتحدى ٢٦٧.

أرضٍ وعرة جافة خالية من الماء»[1].

على أننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الإنسان مهما كان جنسه، ومهما كان لونه، وأياً كانت ثقافته يبحث عن الله على مدى العصور في قرارة نفسه وإن استبد به الانحراف أو سيطر عليه الإلحاد، لأن انحرافه أو إلحاده ما هو إلاّ ثورة مرضيّة على الأوضاع الكنسية، والتقاليد الدينية التي لم تجلب لنفسه غير القلق والشك، إنها جراثيم مرضية سرعان ما تزول حينما تستيقظ الفطرة في نفسه، وينبعث نورها في قلبه: «إنها فطرةَ الله التي فطر النّاس عليها».

يصوّر هذه الحالة التي أشرت إليها وهي البحث عن الله بالفطرة فيلسوف ألحد، لأن الكنيسة لم تساعده على بناء نفسه على أسس من السعادة والاستقرار النفسي، والاتزان الاجتماعي، فيقول:

«إنني أدعو كل يوم، وأقضي اليوم كله داعياً أن تنكشف الحقيقة، لقد أصبح الدعاء هوايتي منذ وجدت الشكوك طريقها إلى قلبي، إنني لا أستطيع أن أقبل عقائدكم، إن قلبي يفيض بالدّموع الغزار، وأنا أكتب هذه السطور، قلبي يبكي عيني تبكي، ولكنني أشعر أنني لست بطريد من

---

(١) في الدين المقارن: ٣٦، ٣٧.

رحمة الله، بل آمل أن أصل إلى الله الذي أتمنى رؤيته بكل قلبي وروحي.

وأقسم بحياتي إن عشقي وبحثي هذا لمحة من روح القُدُس ولن أقلع عن تفكيري هذا، ولو كذبه الإنجيل المقدّس عشرة آلاف مرة»[1].

ولهذه الفطرة في الإنسان دلائل، من هذه الدلائل:

١ - ما نجده «في الطفل وهو ما زال يتعثر في ألفاظه الأولية دون أن يعلمه أحد، أو يستمع إلى غيره ينادي ربه، يدعوه، ويقسم به، ويتجه بحواسه إليه، بل إنه يرفع رأسه ونظره إلى أعلى عند الدعاء أو الرجاء».

٢ - «والإنسان أي إنسان يرى المنظر الجميل، أو يشم الرائحة الزكية أو يتذوق الشيء اللذيذ، أو يصادفه التوفيق في العمل، فنجده وبدون وعي منه، وبلا ترتيب قد رفع صوته بذكر الله عالياً فرحاً.. سعيداً، فإن الإعلان عن سعادته وفرحه، لا يتمّ إلّا بذكر الله.. لا فرق بين العربي والإنجليزي والفرنسي.. كل يهتف بلغته بذكر الله».

٣ - «والإنسان يلم به السوء، ويقترب من الشر، ويكاد

---

(١) الإسلام يتحدّى ٢٦٦.

يقع في الضرر فنجده يهتف باسم الله، فإن فطرته تعلم أنه لا ملجأ منه إلّا إليه».

٤ ـ «والإنسان يحيط به الظلم ولا يستطيع دفعه، وفي إظلام الظُّلم يحس بنور ينبعث من داخله، إنه نور الإيمان بالله الذي فوّض أمره إليه»[١].

من هذا العرض للأدلة الفطريّة ودلائلها التي نلمس آثارها كل يوم بل كل لحظة في حياة الإنسان يتكون أول عنصر من عناصر العقيدة، وهو عنصر الفطرة، إنه العنصر الذي يصفه العقاد بقوله:

«إنما نعني بالعقيدة الدينية ما يشتمل عليه وجدان المفكر في العصر الحديث ولا نعني بها ما تشتمل عليه أوراقه ومجلداته أو متاحفه ومحفوراته.. إنما نعني بالعقيدة الدينية طريقة حياة لا طريقة فكر، ولا طريقة دراسة إنما نعني بها حاجة النفس كما يحسّها من أحاط بتلك الدراسات، ومن فرغ من العلم والمراجعة ليترقب مكان العقيدة من قراءة ضميره، إنما نعني بها ما يملأ النفس لا ما يملأ الرؤوس أو يملأ الصفحات»[٢].

---

(١) انظر: مسلمون بلا مشاكل/٥٣.
(٢) عقائد المفكرين ١١، ١٢.

والفطرة في ضوء القرآن الكريم تعني أنه تعالى: «فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره»[1] وذلك في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾[2].

وقد فسر رسول الله ﷺ الفطرة بقوله: «ما من مولود يولد إلّا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه».

بمعنى أن هذا المولود، لو لم يقلد آباءه في طقوسهم وعباداتهم، لو لم يلقنه آباؤه ما هم عليه من تحريف أو تقليد لاستطاع بفطرته أن يصل إلى الله، ويرتبط به بحبل متين، وهو الدين الخالص الذي حدّده القرآن الكريم بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾[3]، والذي حدّده رسول الله ﷺ في حديث قتادة حيث يقول: «حدّثني أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: فطرة الله التي فطر الناس عليها: دينُ الله تعالى»[4].

ويوضح الألوسيّ هذا الحديث بقوله: «والمراد بفطرهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٤٣٢.
(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.
(٣) سورة الروم: الآية ٣٠.
(٤) تفسير الألوسيّ ٢١/٤٠.

على دين الإسلام خلقهم قابلين له، غير نابين عنه، ولا منكرين له، لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر»[1].

ونكتفي بهذا القدر في هذا العنصر لننتقل إلى العنصر الثاني من مكونات العقيدة، وهو عنصر العقل.

---

(١) المرجع السابق والصفحة.

ثانياً: العقل

١ ـ تعريف العقل:

إنه القوة الخفيّة في الإنسان، ولخفائها احتدم الجدل والنقاش حولها بين العلماء والفلاسفة.

تساءلوا: ما العقل؟ ما المعاني التي يشير إليها؟ هل هو العلم؟ هل هو القلب؟.

هناك إجابات عديدة، ولكنها مختلفة الدّلالة، وما زال باب الحوار مفتوحاً إلى يومنا هذا في معنى العقل، وحتى في اللغة نجد صورة لهذا الخلاف، ففي لسان العرب: «العقل: الحجر والنُّهَى: ضدّ الحمق.

والعقل: هو التثّبت في الأمور.

والعقل: هو القلب.

والعقل: هو التمييز الذي يتميّز به الإنسان من سائر الحيوان»[1].

---

(١) انظر: لسان العرب: عقل.

وفي مجال الفلسفة وعلم الكلام نجد أن الفيلسوف أبا بكر بن العربي ينكر إطلاق العقل على هذه القوة الخفية في الإنسان ويقول ما نصه: «أسماء لا فائدة تحتها، وتهويلات لا طائل وراءها».

وذلك أن الأشياء التي يدركها العقل تسمى عند ابن العربي علماً لا عقلاً بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[1] كما أطلق عليها في موضع آخر عقلاً فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2]. فالعقل عنده هو العلم، وهو صفة يتأتى بها درك العلوم[3].

ويحتفظ الفيلسوف ابن رشد للعقل بتسميته، لأنه يرى أن العقول ليست في مستوى واحد لإدراك الأشياء، فهناك عقول نافذة تغوص إلى العمق، وتضع يدها على الخيوط الدقيقة لتربط الأشياء، وهناك عقول أقل درجة لأنها تقف في الربط عند الصفات الظاهرة، وهناك عقول ليس لها حظٌّ من الإدراك الظاهر أو الخفيّ، وإنما تستجيب دائماً للألفاظ الرنّانة، والأدلة الخطابيّة الوعظية، فابن رشد على هذا

---

(١) سورة النمل: الآية ٥٢.

(٢) سورة الرعد: الآية ٤.

(٣) انظر: آراء أبي بكر بن العربي الكلامية ١/١٤٢، ١٤٣.

الاعتبار يقسم العقل الإنساني إلى ثلاثة أقسام: أو ثلاثة أنواع:

النوع الأول: «العقول البرهانيّة القادرة على متابعة دليل يقينيّ مُحْكَم، وتصل إلى نتائج بيّنة ضرورية، وربط هذه الأدلة هو الذي يكوّن الفلسفة، ولكن هذا لا يتسنّى إلاّ لقلة من العقول الموهوبة.

النوع الثاني: عقول منطقيّة تكتفي بالبراهين الجدليّة.

النوع الثالث: عقول تستجيب للوعظ، والأدلة الخطابية، وهذه غير مهيأة لاتباع الاستدلال المنظّم.

والعقول الأخيرة نجدها عند الناس العاديين، وهم السواد الأعظم الذين لا يستجيبون إلاّ للخيال والعاطفة فحسب[1].

وإذا نظرنا إلى نص ابن رشد نجده في حقيقة الأمر لا يختلف عن رأي الجاحظ في رسالة «المعاش والمعاد» فكلا الرأيين ينبعان من معين واحد: فماذا يقول الجاحظ في رسالته عن هذه القوة الخفيّة؟.

يقول: «فإنما حمدت العلماء بحسن التثبّت في أوائل الأمور واستشفافهم بعقولهم ما تجيء به العواقب، فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات في استدبارها، وبقدر

---

(١) انظر: تراث الإسلام لشاخت ترجمة الدكتور حسين مؤنس ٢١٩.

تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم، فأمّا معرفة الأمور عند تكشفها، وما يظهر من خفاياها فذاك أمر يعتدل فيه الفاضل والمفضول، والعالمون والجاهلون»[1].

وقد أطلق الكاتب المعاصر الدكتور زكي نجيب محمود على العقل كلمة حركة في ضوء ما ينصّ عليه الجاحظ حيث يقول: «فأما التحديد الذي أريد به أن أحدد معنى العقل. . . فهو الحركة التي أنتقل بها من شاهد إلى مشهود عليه، ومن دليل إلى مدلول عليه، ومن مقدّمة إلى نتيجة تترتب عليها، ومن وسيلة إلى غاية تؤدي إليها تلك الوسيلة. . فإذا لم يكن انتقال من خطوة إلى خطوة تتبعها فلا عقل، إذا أدركت شيئاً دون أن تنتقل من هذه الحالة الإدراكية إلى حالة تليها، وتتوقف عليها فلا عقل، إلى أن يقول: «واختصاراً فإن حدّ العقل هو أن ينتقل الإنسان من معلوم إلى مجهول، ومن شاهد إلى غائب ومن ظاهر إلى خبيء خفي، ومن حاضر إلى مستقبل لم يحضر بعد».

ويختم الكاتب تعريفاته للعقل بقوله: «العقل لا يولد العلم من جوفه كما يولد العنكبوت خيوطه من معدته وأمعائه، بل إنه يتقبل حصيلته من الخارج بكائناتها الحية والجامدة،

---

(١) انظر: رسائل الجاحظ ٩٥ تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون.

من معطيات الحواسّ سمعاً وبصراً ولمساً... والعقل مقيّد بالمشاهد والتجارب، مقيّد بالواقع المحسوس، مقيّد بالظواهر، وإنه ليكفر برسالته وبوظيفته إذا هو مزّق هذه القيود ليشطح بلا قيود ولا حدود»[1].

على أية حالة كانت فإن تفسير القدماء والمعاصرين للعقل تدور في فلك واحد، وهو وظيفة هذا العقل، وليس لنا أن نتساءل بما يعجز عنه العقل، فنقول: ما العقل؟ إنه سر وقف إزاءه أصحاب العقول حائرين كما وقفوا إزاء الروح عاجزين، لأنها سر من أسرار الله كالعقل سواء بسواء، وصدق الله العظيم:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

ونحن البشر لا يعنينا أن نعرف حقيقة هذا العقل، لأن الذي يهمنا فقط هو آثار هذا العقل، تلك الآثار التي نلمسها في حياتنا، وفي ميادين البحث، ومجالات المعرفة والسلوك، والنظر في هذا الكون العريض لنركع في خشوع أمام مبدعه:

---

(١) انظر: تجديد الفكر العربي ٣١٠، ٣١١، ٣٣٥.
(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[1].

وقد أصاب المحرّ الإمام أبو زكريا الرّازي في كتابه: «الطب الروحاني» حينما عدد لنا منافع هذا العقل، ودلّنا على منابعه التي نستطيع أن نرتوي منها فنعرف أسرار هذا الوجود العظيم.

قال: «إن الباري عزّ اسمه إنما أعطانا العقل، وحبانا به لننال ونبلغ به من المنافع العاجلة والآجلة غاية ما في جوهر مثلنا نيله وبلوغه..

فبالعقل فضّلنا على الحيوان غير الناطق حتى ملَكْناه وسُسْناه.... وبالعقل أدركنا جميع ما يرفعنا.. وبالعقل أدركنا الأمور الغامضة البعيدة المستورة عنا، وبه عرفنا شكل الأرض والفلك، وعظم الشمس والقمر، وسائر الكواكب، وأبعادها، وحركاتها، وبه وصلنا إلى معرفة الباري عزّ وجل الذي هو أعظم ما استدركنا....

وبالجملة، فإنه الشيء الذي لولاه لكانت حالتنا حالة البهائم والأطفال والمجانين»[2].

---

(١) سورة النّمل: الآية ٨٨.

(٢) انظر: مقام العقل عند العرب لحافظ طوقان ١٠.

ولا ننسى أن القرآن الكريم رفع من شأن العقل، وطالبنا بالتحلّي به والسّير على هديه، والتمسك بأهوائه. وقد تكرّرت مادة العقل في القرآن الكريم في قوله تعالى: عقلوه ـ تعقلون ـ يعقلون ـ يعقلها ـ نعقل تسعاً وأربعين مرة[1].

وفي ضوء هذا الإحصاء يتضح لنا أن العقل في القرآن الكريم شغل كثيراً من آياته التي وصفت المؤمنين بالعقل لأنهم يتدبرون آياته، ووصفت المنحرفين بالجهل والضلال لأنهم لا يعقلون، فَهُم كالأنعام بل هم أضل.

وفي الأصل الثاني من أصول التشريع وهو الحديث الشريف نجد أن كثيراً من الأحاديث الشريفة أشادت بالعقل، وأنزلته منزلة رفيعة وفي الوقت نفسه ذمت الحمقى والجهلاء، ذلك لأن العقل هو دعامة كل شيء بل إن الحياء والدين وهما ما هما في إصلاح الفرد، وإسعاد المجتمع يسيران مع العقل حيثما سار.

فمن الأحاديث التي توضح هذا المعنى الذي قلناه وتؤكده قوله عليه السلام: «لكل شيء دعامة، ودعامة المؤمن عقله، فبقدر عقله تكون عبادته».

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (عقل) وهذا إحصاء قمت به.

وجاء في الأثر: أن جبريل أتى آدم عليه السلام، فقال له: «إني آتيك بثلاث فاختر واحدة منها»، قال: «وما هي يا جبريل؟» قال: «العقل والدين والحياء»، قال: «قد اخترت العقل»، فخرج جبريل إلى الحياء والدين فقال: «ارجعا فقد اختار عليكما العقل»، فقالا: «أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان».

وقال عليه السلام أيضاً مشيداً بالعقل: «ما اكتسب رجل مثل عقل يهدي صاحبه إلى هدى، ويردّه عن ردى، وما تم إيمان عبد ولا استقام دين حتى يكمل عقله»[1].

وفي المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي طائفة من الحديث الشريف تشغل حيزاً من صفحاته[2]، وكلها تدور حول العقل.

٢ ـ العقل في مجال العقيدة:

إن الإنسان حينما يلتفت حوله يجد أنه محاط بكون عظيم، فإذا صعد البصر إلى السماء يرتد طرفه خاسئاً وهو حسير، لأن بصره لا يستطيع أن يصمد طويلاً أمام ما يرى من عجائب الكون، ونجوم السماء، وحينما يجيل نظره في

---

(١) انظر: مقام العقل عند العرب ٣٠، ٣١.

(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ٤/ ٢٩٨.

المخلوقات التي تزاحمه على كوكب هذه الأرض يرى عجباً، فيزداد حيرة. وتتوارد على فكره وعقله أسئلة محيّرة، يعمل من خلالها عقله ليجد الإجابة عليها، وقد قدمنا نماذج هذه الأسئلة عند الحديث عن الفطرة التي نعتبرها عنصراً من عناصر العقيدة، ولكن العقل يختلف عن الفطرة في أنه يريد أن يصل إلى الحقائق وفق مقدمات توصل إلى نتائج، تطمئن إليها النفس، ويخضع لها العقل ولا يقنع بمجرد الإحساس الداخلي نحو خالق هذا الكون، وصانع هذا العالم، إنه يريد أن يلهث جرياً وراء الحقيقة، فإذا ما وصل إليها ألقى سلاحه واستراح.

إن نشأة هذا الكون المادي شغلت هذا العقل الإنساني منذ أن وجد الإنسان، وفي رحلته الطويلة نحو الحقيقة في غيبة الرسل كان يكبو مرة فيصور الإله حجراً أو وثناً، شمساً أو قمراً، ويعتدل مرة فيسلم بأن لهذا الكون إلهاً واحداً، لأن الحجر يتفتت، والوثن يتحطّم، والشمس تأفل، والقمر يغيب، والإله القادر قوة لا تقهرْ، ودائم لا يخفى، وحي لا يموت.

وفي عصرنا الحاضر ابتعدت تعاليم الكنيسة عن العقل، فلم تعد تؤثر فيه مما تسبب في ظهور أمواج إلحادّية تتنكّر للدين، وتؤمن بالعقل.

وتخبطت هذه العقول بفعل فلسفات مادّية، منها فلسفات أنكرت وجود الله، لأن هذا الكون المادّيّ لا يحتاج إلى خالق في نظر أصحاب هذه الفلسفات، ومنها اعتقاد أن هذا الكون وهم وخيال، وأنه لا وجود له، ومنها اعتقاد أن هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه.

هذه الفلسفات التي تفيض بها مؤلفات الفلاسفة في أوروبا وغيرها نوقشت مناقشة عقلية هادئة من فلاسفة وعلماء اهتموا بالحقيقة، واعترفوا بالمنطق القائم على المقدمات والنتائج، والمنطق دعامة العقل حينما ينطق في مجال التفكير، ومن خير العلماء المعاصرين الذين ناقشوا هذه القضية: «فرانك أللن» أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة كندا.

يقول: «كثيراً ما يقال: إن هذا الكون لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود، فكيف نفسر وجوده ونشأته؟.

هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال: فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده، وإما أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وإما أن يكون أبدياً ليس لنشأته بداية، وإما أن يكون له خالق.

أما الإحتمال الأول فلا يقيم أمامنا مشكلة، سوى مشكلة

الشعـور والإحساس، فهـو يعني أن إحساسنـا بهذا الكـون وإدراكنا لما يحدث فيه لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام ليس له ظل من الحقيقة. . . وتبعاً لهذا الرأي نستـطيع أن نقول: إننا نعيش في عالم من الأوهام، فمثلاً هذه القطارات التي نـركبهـا ونلمسهـا ليست إلّا خيـالات، وبهـا ركـاب وهميون، ونعبر أنهـاراً لا وجود لهـا. . وهو رأي وهمي لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال.

أما الرأي الثاني القائل بأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة قد نشأ هكذا وحده من العدم فهو لا يقلّ عن سابقه سخفاً وحماقة ولا يستحق هو أيضاً أن يكون موضعاً للنظر أو المناقشة.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يشترك مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون وذلك في عنصر واحد هو الأزليّة.

وإذاً فنحن إما أن ننسب صفة الأزليّة إلى عالم ميت وإما أن ننسبها إلى إله حيٍّ يخلق. . . ولكن قوانين الديناميكا الحرارية تدل على أن مكونـات هذا الكـون تفقد حـرارتها تدريجيّاً وأنها سائرة حتماً إلى يوم تصير فيه جميع الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة وتستحيل الحياة. ولا مناص من حدوث

هذه الحالة من انعدام الطاقات عندما تصل درجة حرارة الأجسام إلى الصفر المطلق بمضي الوقت.

أما الشمس المستعرة، والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون أو أساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة، فهو إذاً حدث من الأحداث. ومعنى ذلك أنه لا بد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم، محيط بكل شيء، وقوي ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه»[1].

وهكذا استطاع العالم «فرانك أللن» أن يثبت وجود الله بمنطق عقلي، ومنهج فكري لا يبعد كثيراً عن مناهج مفكّري الإسلام في إثبات وجود الله.

بل لا أبالغ إذا قلت: إن هذا المفكّر العصري سبقه إلى هذا المنهج الجاحظ في كتابه: «الدلائل» حينما عرض لنشأة هذا الكون، وأنه من صنع إله قادر ناقداً من يقول بنشأة هذا الاتفاق والصدفة، مبيناً أنه رأي يقوم على الهوى والتضليل، والحمق والجهل.

يقول الجاحظ: «فإن قلت: إن هذا شيء اتفق أن يكون هكذا، فما يمنعك أن تقول في دولاب تراه يدور لسقي

---

(١) انظر: «الله يتجلى في عصر العلم» ٧/٨.

حديقة فيها شجر ونبات؟.

فترى كل شيء من آلته، مقدّراً بعضها تلقاء بعض، مع ما فيه من صلاح تلك الحديقة وما فيها؟ وبما كنت تُثبت هذا القول لو قُلته؟.

وماذا ترى الناس كانوا قائلين لك لو سمعوه منك سوى تسفيه رأيك، وتضليل عقلك؟.

أفتنكر أن تقول: هذا في دولاب خسيس مصنوع بحيلة قصيرة لمصلحة قطعة من الأرض، إنه كان بلا صانع ومقدر؟ وتقدم على أن تقول في الدولاب الأعظم المخلوق بحكمة تقصر عنها أذهان البشر لصلاح الأرض وما عليها: إنه شيء اتفق أن يكون بلا صنعة ولا تقدير؟.

ولو اعتلّ هذا الفلك كما تعتلّ الآلات التي تتخذ لرفع المياه وغيرها ما كان عند الناس من حيلة في إصلاحه، وكيف لو تخلف عنهم، بمقدار عام أو بعض عام؟ كيف تكون حالتهم؟ كيف يكون له بقاء؟ أفلا ترى كيف كفى الناس هذه الأمور الجليلة التي لم يكن لهم عندها حيلة.

فصارت تجري على مجاريها ولا تَعْتَلُّ، ولا تختلّ منافعها ومصالحها ولا تختلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه»[1].

---

(١) نقلاً في كتاب: «الإيمان» للدكتور علي عبدالمنعم ١٢٨، ١٢٩.

٣ ـ الأدلة العقلية في ضوء القرآن الكريم:

لم يترك القرآن الكريم العقل ليسير من غير توجيه، لأن الدروب متعددة، والمسالك متشعبة بل رسم له منهجاً يترقّى من خلاله على أصول التفكير السليم:

وجهه إلى الكون ليلتمس العبرة بنفسه، ويحس بالحقيقة عن طريق إدراكه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2].

وجهه إلى قصة الإبداع الكبرى، قصة خلق السموات

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣.

(٢) سورة الرعد: الآية ٤.

والأرض، قصة انبثاق الحياة من العدم:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1].

والقرآن الكريم لم يقف عند هذا الحد من التوجيه والتربية للعقل الإنساني بل انتقل به إلى مرحلة أخرى وهي مرحلة التوحيد.

والتوحيد هو جوهر العقيدة، وروحها المشرق، ولولاه لتهدّم بناؤها وضاع كيانها، وأصبحت لفظاً بدون معنى، وجسماً بدون حركة.

وسنتناول أدلة التوحيد في ضوء العقل من خلال القرآن الكريم:

أ ـ أدلة التوحيد:

تناول الإمام الرازي في تفسيره الكبير ثمانية أنواع من الأدلة قال: «إعلم أن الله سبحانه وتعالى لمّا حَكَم بالفردانية والوحدانية ذكر ثمانية أنواع من الدلائل التي يمكن أن يستدل بها على وجوده سبحانه أولاً، وعلى توحيده وبراءته من الأضداد والأنداد ثانياً».

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

وأخذ يعدّد هذه الدلائل دليلاً تلو دليل، وذلك عند قوله تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ... ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1].

والأدلة الثمانية هي:

١ ـ الاستدلال بأحوال السموات.

٢ ـ الاستدلال بأحوال الأرض.

٣ ـ الاستدلال باختلاف الليل والنهار.

٤ ـ الاستدلال بالفلك التي تجري في البحر.

٥ ـ الاستدلال بإنزال الماء من السماء.

٦ ـ الاستدلال بخلق الدواب وبثها في الأرض.

٧ ـ الاستدلال بالسحاب المسخر بين الأرض والسماء.

٨ ـ الاستدلال بتصريف الرياح.

وهذه الأدلة مسجلة في قوله تعالى:

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ

---

(١) سورة البقرة: آية ١٦٣، ١٦٤.

مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] وختم الإمام الرازي هذه الأدلّة بقوله: «أما قوله تعالى: ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ فإنما خص الآيات بهم، لأنهم الذين يتمكنون من النظر فيه، والاستدلال به على ما يلزمهم من توحيد ربهم، وعدله، وحكمه، ليقوموا بشكره، وما يلزم من عبادته وطاعته»[2].

واستقامة أمر السموات والأرض وما فيهن لن يتحقق إلّا بالإله الواحد: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[3].

يقول الألوسي في تفسيره: «أي نزّهوه أكمل تنزيه عن أن يكون من دونه تعالى آلهة كما يزعمون، فالفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من ثبوت الوحدانية، وإبراز الجلالة في موقع الإضمار للإشعار بعلة الحكم، فإن الألوهية مناط لجميع صفات الكمال التي من جملتها تنزهه تعالى عن

---

(١) الآيات السابقة.

(٢) انظر: تفسير الفخر الرازي ٤/١٦٨، ٢٠٣.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

الشركة، ولتربية المهابة، وإدخال الروعة»[1].

وبعد العرض الموجز لهذه الأدلّة العقلية في ضوء القرآن الكريم نحب أن نسوق بعض الأدلّة الأخرى التي نلمس آثار الوحدانية فيها، لأننا نشاهدها بكل حواسنا في هذا الكون الذي نعيش فيه، ولولا هذه النعم التي تلامس حياة الإنسان على ظهر هذه الأرض لما استطاع أن يعيش لحظة واحدة بدون عناية، ورعاية، ونِعَمٍ وتربية من جانب الإله الواحد، إنها أدلّة امتزج فيها العقل بالعاطفة، والفكر بالشعور والوجدان، إنها أدلّة تحيي القلب الميت، وتشدّ إليها أصحاب العقول والبصائر ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ

---

(١) تفسير الألوسيّ: ١٧/٢٨.

ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ
ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ
فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ
رَحْمَتِهِۦٓ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

على أن العقل الذي انطلق في ملكوت السموات والأرض مستدلاً على وجوده تعالى بما يشاهد من خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار والتفكر والتدبر في كل ما وقع عليه النظر، أو سمعته الأذن أو أحس به الوجدان وقف عند مرحلة محدودة من التفكير لا يستطيع أن يتجاوزها أو يتعدّاها، لأنها فوق استعداده، وفوق طاقته، وفوق إدراكه، وذلك لأن العقل يفكّر في كل ما تقع عليه العين أو يأتي إليه من طريق الوسائل الحسية والمدركات. أما ما وراء ذلك فإن التفكير فيه تطاول عن الحقيقة، لأن العقل المحدود لا يستطيع أن يلمس هذه المرحلة أو يطرق بابها ألا وهي مرحلة التفكير في ذات الله.

(١) سورة النمل: الآية ٥٩ ـ ٦٤.

ومن أجل هذا نهى الإسلام العقل أن يفكر في ذات الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، وكل ما ورد في بالك فالله بخلاف ذلك». أن التفكير في الله جنون لا يستقيم مع المنهج السليم، وكيف يفكر المحدود في اللامحدود، والفاني في الباقي، والعاجز في القوي، والميت في الحي؟.

إن الإسلام قد وضع يد الإنسان على أسرار هذا الكون ليلمس بعقله العبرة والعظة من هذه المظاهر الكونية، ولكن عقل الإنسان لو تجاوز حدوده لأدى ذلك إلى التفكير المضطرب، إلى الإنحدار، إلى الهاوية.

يقول كاتب معاصر في هذا الموقف: «نحن لا نعرف عن الله إلّا أسماءه وصفاته وأفعاله، أما ذاته فهي الغيب المطلق».

وإذا كان إدراكك لذاتك مستحيلاً، فإن إداركك لذات الله هو ذروة المحال، وهو إلقاء بنفسك إلى مشقة وعذاب لا قِبَل لك به، ولا يُجديك شيئاً.

﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾[1]. والبحث في ذات الله، والإصرار على اجتلاء هذا المحال يؤدي حتماً إلى

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٣.

الجذب والجنون، لأنّه محاولة من العقل إلى مناقشة ما لا يناقش، وتحليل ما لا يقبل التحليل، وتنتهي المحاولة إلى أن يُمَزّق العقل نفسه بنفسه.

هل تستطيع أن تحتوي بين ذراعيك ما لا يمكن احتواؤه؟ وإذا أصررت على هذه الحماقة ألا تتمزق ذراعاك؟[1].

وقبل أن أختم هذه النقطة أحب أن أشير إلى أن كثيراً من عامة الناس، وعامة المثقفين، يسألون للوصول إلى الله بعقولهم هذا السؤال التقليدي. من خلق الله الذي خلق الخلق؟ إنه سؤال ساذج لأنّ الله تعالى لو كان مخلوقاً لما استطاع أن يخلق، لأن المخلوق عاجز عن الخلق.

يقول الأستاذ البنّا رحمه الله مجيباً عن هذا السؤال:

«إذا وضعت كتاباً في مكتبك ثم خرجت من الحجرة، وعدت إليه بعد قليل، فرأيت الكتاب الذي تركته على المكتب موضوعاً في الدرج فإنك تعتقد تماماً أن أحداً لا بد أن يكون قد وضعه في الدرج، لأنك تعلم من صفات هذا الكتاب أنه لا ينتقل بنفسه، احفظ هذه النقطة، وانتقل معي إلى نقطة أخرى.

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري ٢٧٢.

لو كان معك في حجرة مكتبك شخص جالس على الكرسي، ثم خرجت وعدت إلى الحجرة فرأيته جالساً على البساط مثلاً، فإنك لا تسأل عن سبب انتقاله، ولا تعتقد أن أحداً نقله من موضعه، لأنك تعلم من صفات هذا الشخص أنه ينتقل بنفسه ولا يحتاج إلى من ينقله.

احفظ هذه النقطة، ثم اسمع ما أقوله لك:

لما كانت هذه المخلوقات محدثة، ونحن نعلم من طباثعها وصفاتها أنها لا توجد بذاتها، بل لا بد لها من موجد، عرفنا أن موجدها هو الله تبارك وتعالى. ولما كان كمال الألوهية يقتضي عدم احتياج الإله إلى غيره، بل إن من صفاته قيامَهُ بنفسه عرفنا أن الله تبارك وتعالى موجود بذاته، وغير محتاج إلى من يوجده.

وإذا وضعت النقطتين السابقتين إلى جانب هذا الكلام اتضح لك هذا المقام، والعقل البشري أقصر من أن يتورط في أكثر من ذلك»[1].

---

(١) انظر: النص في كتاب «الله» لسعيد حوى ٢٨، ٢٩.

ولا أذهب بعيداً إذا قلت أن هذا أول درس للعقل في الإيمان بالغيب وذلك هوالعنصر الثالث من عناصر العقيدة.

ثالثاً: الغيب

إن الإيمان بالغيب مكوّن من مكوّنات العقيدة، فهناك أمور يتوقف فيها العقل، ولا يستطيع أن يؤدي وظيفته، فكثير من القضايا فُصِل فيها بين الأسباب والمسبّبات، والمقدّمات والنتائج، والعِلل والمعلولات.

وعلى العقل أن يذعن للاعتراف بأن الله الذي خلقه قادر على أن يفصل بين المقدمة والنتيجة، والسبب والمسبب، والعلة والمعلول.

وقد وضح لنا القرآن الكريم كثيراً من الأمثلة التي تؤكّد هذا المعنى وتقرره، فقصة زكريا عليه السلام مع مريم مثال واضح مشهور على ما نقول.

نعم أنها قصة مليئة باللفتات العجيبة، فمريم يأتيها رزقها رغداً من حيث لا تدري، فكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، ولا يدري من الذي أتى لها بهذا الطعام أو هذه الفاكهة، ويسأل متعجباً:

﴿ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1]. وزكريا نفسه امرأته عاقر، وقد بلغ من الكبر عتياً، ولما أراد الله أن ينجب تـوارت الأسباب وتلاشت المقدمات أمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون. ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾[2].

وجاءت ولادة عيسى عليه السلام درساً بليغاً للعقل، فقد أقام بنو إسرائيل الدنيا وأقعدوها كيف تلد مريم بدون أن يمسها بشر، ولكنها القدرة التي أقنعتهم أنه ليس هناك سبب ومسبب في مجال قدرة الله: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3].

بهذا الإيمان الذي تتوارى فيه الأسباب مع مسبباتها يستسلم العقل إلى ما وراء هذا الكون، فيؤمن بالجنة والنار، والبعث والنشور، والحساب والعقاب والملائكة والجن مما لا يقع تحت بصر، أو يحيط به إدراك.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٣٧.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٤٠.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٥٩.

رابعاً: الشرع

إن الشرع من مكوّنات العقيدة، ونقصد بالشرع مجموعة المبادىء والقيم، والقوانين والتشريعات التي جاءت بها الرسل.

وحينما نقول جاءت بها الرسل فإنما نعني أن الله تعالى أوحى إليهم بهذه المبادىء والقيّم عن طريق الوحي.

ولنا أن نتساءل كيف يتصل الرسل وهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق بالوحي مع أنه ليس بشراً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق؟.

يجيب ابن خلدون عن هذا التساؤل حينما قسّم النفوس البشرية على ثلاثة أصناف قال بعد أن عرض الصنفين الأوليين ما نصّه: «وصنف مفطور على الانسلاخ من البشريّة جملة، جسمانيتها، وروحانيتها إلى الملائكة من الأفق الأعلى ليصير في لمحة من اللمحات ملَكاً بالفعل، ويحصل له شهود الملأ الأعلى في أفقهم، وسماع الكلام النفسانيّ، والخطاب الإلهيّ في تلك اللمحة، وهؤلاء الأنبياء،

صلوات الله، وسلامه عليهم.

جعل لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللمحة، وهي حالة الوحي، فطرة فطرهم الله عليها... فهم يتوجهون إلى ذلك الأفق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاءوا بتلك الفطرة التي فطروا عليها لا باكتساب ولا صناعة، فإذا توجهوا وانسلخوا عن بشريتهم وتلقوا في ذلك الملأ الأعلى ما يتلقّونه عَاجُوا به على المدارك البشريّة منزّلاً في قواها لحكمة التبليغ للعباد.. إلى أن يقول.. واعلم أن في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة، قد أشار إليها القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾[1]. وقالت عائشة: كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وأن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً»[2].

هؤلاء الرسل الكرام الذين تلقوا رسالاتهم عن الله بطريق الوحي أمروا بتبليغها حتى تنقطع حجة البشر أمام خالقهم لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3].

---

(١) سورة المزمل: الآية ٥.
(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ٩١، ٩٢.
(٣) سورة الإسراء: الآية ١٥.

وقد تعدد الرسل تبعاً لتعدد الأمم. مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾[1].

والرسل عدّد القرآن الكريم الكثير منهم، وترك طائفة أخرى أشار إليها ولم يذكر شيئاً عنها مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[2].

ومن متطلبات العقيدة أن نؤمن بهؤلاء الرسل ونؤمن بالكتب التي نزلت عليهم مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾[3].

---

(١) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٢) سورة النساء: الآية ١٦٤، ١٦٥.
(٣) سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

وحيث إنَّ اليوم الآخر غيب، وما يقع فيه من حساب وعقاب غيب، وقيام الساعة غيب، فمن متطلبات العقيدة أن نؤمن بما تخبرنا به الكتب السماوية عن طريق الرسل أو بما تخبرنا به الرسل أنفسهم عن طريق أحاديثهم.

وحيث إن الشرع الإلهي جاء به الرُسل لإصلاح البشرية، وإسعاد الإنسانية فمن متطلبات العقيدة السير على هديه، واحتضان مبادئه وتنفيذ تعاليمه، ذلك لأننا لو تركنا مصدر التشريع للعقل الإنساني وحده لدمّر سعادة البشرية كلها، لتفاوت العقول وتباين الأمزجة، واختلاف الطبائع، وتعدّد البيئات.

«إن مصدر التشريع هو الله وحده خالق الأرض والكون فالذي أحكم قوانين الطبيعة هو وحده الذي يليق أن يضع دستور حضارة الإنسان ومعيشته، وليس هناك من أحد غيره سبحانه يمكن تخويله هذا الحق... إنه لا يمكن قبول إنسان حاكماً ومشرّعاً للإنسان ولا يتمتّع بهذا الحقّ إلاّ خالق الإنسان وحاكمه الطبيعيّ الله»[1].

ومن رمال الصحراء استمع «العالم إلى صوت من جانب الجزيرة العربية يدعو إلى رب العالمين، رب العربي

---

(١) الإسلام يتحدى: ٢٣٨.

والأعجمي، ورب الأبيض والأسود، ورب كل عشيرة وكل قبيلة صوت نبيّ ينادي كل من بعث إليه أنه لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الأرض.. صوت نبيّ يقول للناس: إنه إنسان كسائر الناس، وهو بشير يهدي إلى الحق وإلى الرشد، نذير يحذّر من الباطل والضلال»[1].

أجل: إن هناك أدياناً أوحي بها إلى رسل سابقين جاءت في أزمان مختلفة وفي أماكن متعددة لتصلح ما فسد من العقائد وما مات من الضمائر، وهي أديان محدودة بحدود الزمان والمكان.

وكان موقف دين محمد من هذا الأديان موقف المصحح المتمّم، لأنه دين عام للإنسان في كل زمان ومكان. ودين طبيعته إصلاح الأزمنة الفاسدة، وعلاج العالم المنحرف لا بدّ أن يحمل في يده مصباح الهداية للسائرين، إنه دين الإسلام الذي جاء بالدّعوة إلى إله منّزهٍ عن لوثة الشرك، منـزّه عن جهالة العصبية وسلالة النسب، منزّه عن التشبيه الذي تسرب من بقايا الوثنيّة إلى الأديان الكتابية.

فالله الذي يؤمن به المسلمون: إلـه واحد لم يكن لـه شركاء سبحانه عما يشركون.

---

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٦٧.

وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة، ولكنه هو ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى فلا فضل بينهم لعربي على أعجمي، ولا لقرشي على حبشي إلاّ بالتقوى.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1].

وهو واحد أحد: ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2].

لا يأخذ إنساناً بذنب إنسان، ولا يحاسب أمة بجريرة أمة سلفت: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾[3].

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4].

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[5].

ودينه دين الرحمة والعدل، تفتتح كل سورة من كتابه: بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.
(٢) سورة الإخلاص: الآية ٣، ٤.
(٣) سورة فاطر: الآية ١٨.
(٤) سورة البقرة: الآية ١٤١.
(٥) سورة الإسراء: الآية ١٥.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[1]، ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[2].

فمن صميم بلاد العصبية والعشائر خرج الدين الذي يدعو إلى إله واحد ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ورب المشرق والمغرب، ورب الأمم الإنسانية جمعاء بغير فارق بينها غير فارق الصلاح والإيمان[3].

إن هذا الدين وحي من الله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[4] نزل على رسول أمّيٍّ ليكون معجزة المعجزات، اعترف هذا الدين بما سبق من أديان السموات.

إنه دين صحح العقائد الإلهية، فلا تثليث في عقيدته لأن الإله الذي يدعو إليه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً.

نعم إنه دين «صحح العقائد الإلهية، وتمّمها فيما سبقه من ديانات الأمم وحضاراتها ومذاهب فلسفتها ـ تراه من أين أتى؟ ومن أي رسول كان مبعثه ومرعاه؟. من صحراء العرب.

---

(١) سورة فصّلت: الآية ٤٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٩.

(٣) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٥٠/٥١.

(٤) سورة النّجم: الآية ٤.

ومِنْ الرسُّول الأمّيّ بين الـرسـل المبعـوثين بـالكتب والعبادات.

إن لم يكن هـذا وَحْيـاً من الله فكيف يكـون الـوحي من الله؟ . . .

ليكن كيف كان في أخلاد المؤمنين بالوحي الإلهي حيث كان، فما يهتدي رجل أمي في أكناف الصّحراء إلى إيمان الله أكمل من كل إيمان تقدّم إلاّ أن يكون ذلك وحياً من الله، وإنه لَحَجْرٌ على البصائر والعقول أن تنكر الوحي على هذه المعجزة العليا لأنـه لا يصدق عليهـا في صورة من صـور الحدس أو الخيال»[1].

معجزة القرآن:

والقرآن الكريم معجزة هذا الرسول العظيم، إنها معجزة أعلاها مثمر، وأسفلها مُغْدق، لها حـلاوة، وعليها طـلاوة، يعلو ولا يُعلى عليه: نزل بهـا الروح الأمين لتكـون مصدر إشعاع لكل الناس أجمعين.

والقرآن: مصدر التشريع، ودستـور المسلمين بيّن لهم الطريق، ورسم لهم معاني الهـدايـة، وضمن لهم سعـادة

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٥٣.

الدنيا، ونعيم الآخرة. والأحكام التي جاء بها القرآن الكريم ثلاثة أنواع:

١ ـ أحكام اعتقادية تتعلق بما يجب على المكلّف اعتقاده في الله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٢ ـ أحكام خلقية تتعلق بما يجب على المكلّف أن يتحلّى به من الفضائل، وأن يتخلى عنه من الرذائل.

٣ ـ أحكام عملية تتعلق بما يصدر عن المكلّف من أقوال وأفعال، وعقود وتصرفات وهذا النوع الثالث هو فقه القرآن[١].

السنة:

والسنة تلي القرآن في المرتبة، وهي ما كان عليه الرسول عليه السلام وخاصة أصحابه عملاً وسيرة. وقالوا: السنة تطلق في الأكثر على ما أضيف إلى النبي عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير. وفي التعريفات للجرجاني: «السنة في الشريعة هي الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب»[٢].

---

(١) انظر علم أصول الفقه للأستاذ عبدالوهاب خلاف.

(٢) انظر: في تعريفات السنة: أضواء على السنة المحمدية ١٦، ١٧ والتعريفات للجرجاني ٦٥.

وبعد، فهذه مكوّنات العقيدة إذا تحققت تحوّلت إلى قوّة تبدّد الظّلام، وتبعث النور، وتمنح الحياة سعادة وارفة الظلال وأمناً يمد جناحه على النفس المضطربة فتسكن وعلى الأعصاب المهتزة فتهدأ، وعلى الدنيا بأسرها لترتفع عليها أعلام الحق، ورايات الهدى، فيعيش الإنسان في إنسانيته يقوده الحق إلى عزّة الدنيا وسعادة الآخرة.

ونختم الحديث عن العقيدة بمكوناتها الأربعة بما ذكره العقاد حول قوة العقيدة يقول: «هذه القوة لا تضارعها قوة العصبّية ولا قوة الوطنية، ولا قوة العُرْف ولا قوة الأخلاق، ولا قوة الشرائع والقوانين... إلى أن يقول: أما الدين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره، وميدانه يتسع لكل ما في الوجود من ظاهر وباطن، ومن علانية وسر، ومن ماض أو مصير إلى غير نهاية بين آزال لا تحصى في القوم وآباد لا تحصى فيما ينكشف عنه عالم الغيوب. وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية في مثلها الأعلى، وغايتها القصوى»[1].

ويما ذكره أيضاً العلّامة محمد فريد وجدي حيث يقول:

«نريد بالمؤمن المعتقد من عقد على الإيمان قلبه،

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٦.

ووقف عليه عقله ولبه فسرت أنواره في أعماق سرائره، ونفذت آثاره إلى مطويات ضميره، وبات الإيمان أدخل من نفسه في نفسه وألصق بمعناه من سائر همّه، فالإيمان تصديق جازم مع إذعان»[1].

---

(١) نقلاً عن كتاب «الإيمان» للدكتور علي عبدالمنعم ١٨

الفصل الثاني

ثمار العقيدة

إن العقيدة شجرة مباركة طيّبة ضربت جذورها في أعماق النفس وأمدتها المكوّنات السابقة بما يمدّها بالغذاء والعطاء، والنُّمو والحياة، وشجرة على هذا النحو لا بد أن تثمر، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها فما ثمار العقيدة؟.

إن ثمار العقيدة متعددة متنوعة، فمن ثمارها:

أ ـ العبودية لله تعالى:

ولا أستطيع أن أتناول هذه العبودية بالشرع والتحليل أكثر مما فعل ابن تيمية في كتابه: العبودية، قال:

إن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له التي خلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [1].

وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه:

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٥٦.

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾[1]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾[3].

وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[4]، وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٩.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٩٢.
(٣) سورة النحل: الآية ٣٦.
(٤) سورة الحجر: الآية ٩٩.
(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٩.

ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾[1].

ونعت صفوة خلقه بالعبوديّة فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[2].

وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[3].

وقد نعت الله رسوله بالعبوديّة في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[4].

وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾[5].

ويبين ابن تيمية أن الدين كله داخل في العبادة، فقد ثبت في الصحيح أن جبريل لما جاء إلى النبي ﷺ في صورة أعرابي وسأله عن الإسلام قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٠٦.
(٢) سورة الفرقان: الآية ٦٣.
(٣) سورة الأنبياء: الآية ٢٦.
(٤) سورة الإسراء: الآية ١.
(٥) سورة الجن: آية ١٩.

إلاّ الله وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعت إليه سبيلاً».

قال: فما الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: فما الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، ثم قال في آخر الحديث: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم».

ولا ينسى ابن تيمية أن يذكر لنا أن العبادة: تتضمن معنى الذّل ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له: فإن آخر مراتب الحب هو التّتيّم، وأوله العلاقة لتعلق القلب بالمحبوب، ثم الصبابة لانصباب القلب إليه، ثم الغرام، وهو الحب الملازم للقلب، ثم العشق وآخرها التّتيّم يقال: تيّمُ الله أي عبدالله، فالمتيّم، المعبّد لمحبوبه.

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه ولهذا يكفي أحدهما في عبادة الله تعالى: بل يجب أن يكون الله أحبَّ إلى العباد من كل شيء وأن يكون الله أعظم عنده من كل شيء وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة، وما عظّم بغير أمر الله فتعظيمه باطل.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾[1].

وهكذا كانت العبودية لله تعالى ثمرة من ثمار العقيدة وقبل أن نختم هذه النقطة نحب أن نشير إلى أن منبع العبودية هو القلب، كما قال الرسول عليه السلام ما معناه: «ألا وإن في القلب مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» وما أجمل تحليل الإمام الغزالي لهذا القلب الذي أشار إليه الحديث بأنه أمير البدن، وملك الجوارح والحواس، وذلك حيث يقول: «إذا شئت أن تعرف نفسك فأعلم أنك من شيئين: الأول: هذا القلب، والثاني يسمّى النفس والروح... وليس القلب هذه القطعة اللّحْمية التي في الصدر من الجانب الأيسر، لأنه يكون في

---

(١) سورة التوبة: الآية ٢٤. وانظر: هذه النصوص المقتبسة في تصرف من كتاب العبودية لابن تيمية ٣٨/٥٧.

الدواب والموتى.. إلى أن يقول: وأما حقيقة القلب فليس من هذا العالم، لكنه من عالم الغيب، فهو في هذا العالم غريب.... وكل أعضاء الجسد عساكره وهو الملِكُ، وللقلب عساكر كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[1] والقلب مخلوق لعمل الآخرة، طلباً لسعادته، وسعادته معرفة ربه عز وجل.

ويبين الغزالي أن للقلب عسكرين «وذلك أن العسكر الظاهر هو الشهوة والغضب ومنازلهم في اليدين والرجلين، والعينين والأذنين وجميع الأعضاء، وأما العسكر الباطن فمنازله في الدماغ وهو قوي الخيال والتفكر، والحفظ والتذكر والوهم، ولكل قوة من هذه القوى عمل خاص، فإن ضعف واحد منهم ضعف حال ابن آدم في الدارين، وجملة هذين العسكرين في القلب وهو أميرهما، فإن أمر اللّسان أن يذكر ذكر، وإن أمر اليد أن تبطش بطشت، وأن أمر الرِّجْل أن تسعى سعت، وكذلك الحواس الخمس حتى يحفظ نفسه كما يدّخر الزاد للدار الآخرة، ويحصل الصيد وتتم التجارة، ويجمع بذر السعادة، وهؤلاء طائعون للقلب كما أن الملائكة طائعون للرب سبحانه وتعالى لا يخالفون أمره»[2].

---

(١) سورة المدثر: الآية ٣١.

(٢) انظر: المنقذ من الضلال ١١٠/١١٥.

ب ـ القضاء على سلطة الكهنوت:

وهذه الثمرة مرتبطة بالثمرة الأولى، فما دامت العبودية لله وحده فليس هناك شركاء لله تعالى في هذه العبودية من البشر حتى ولو كانوا أنبياء أو مرسلين يتحدثون باسم الدين، ويتكلمون باسم الرب ذلك لأن القرآن الكريم وضع الرسل في حجمهم الطبيعي. إنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

إن قيمتهم الحقيقة في مبادئهم ورسالاتهم في ذواتهم:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾[1]، ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[2].

وحتى المعجزات التي يؤيد بها الله تعالى الرسل لم تكن إلاّ على جهة الإنذار والتخويف، وأنها من صنع الله ومن قدرته، وليست من قدرة هؤلاء المرسلين، حتى لا تخضع لذواتهم أممهم التي بعثوا لها، فيعطوا لهؤلاء الرسل من العبودية ما يعطون لله، وبذلك يَضِلون.

من هنا حرص كل نبيّ وكل رسول أن يعلن على قومه أول كلمة في رسالته: إنّي عبدالله: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ

---

(١) سورة فصلت: الآية ٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٩٣.

أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾[1].

ويضع خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه السلام القول الفصل في قضية قدرات الرسل على الإتيان بالخوارق والمعجزات التي يطلبها قومه، فيبين لهم بما لا يدع مجالاً للشك أنه بشر وليس من قدرات البشر أن تحقق خوارق أو معجزات إلاّ بأمر الله، ومن هنا يجرّد نفسه من كل قوّة إلاّ قوة الله، وما دام الرسول بقوة الله يتحرك، وبقوة الله يسير فما هو إلاّ عبد خالص العبوديّة لربّه، ومَنْ كان كذلك فإن العبودية لغير الله تعالى عملٌ ضالٌ يحطم العقيدة، ويبدّد الإيمان.

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ

---

(١) سور النساء: الآية ١٧٢،

لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1].

ويعلّق الأستاذ الإمام محمد عبده على معجزات الأنبياء: مقارناً بينها وبين معجزة الرسول عليه السلام فيقول:

«دخل الإنسان بدين الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان... كما كان في سن الطفولة بل أرشده الله تعالى بالوحي الأخير ـ القرآن ـ أن يستعمل عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي..»[2].

وإذا كان رسل الله وأنبياؤه ليس لهم سلطة التقديس لذواتهم فمن باب أولى أن يكون رجال الدين، ورجال الكهنوت ليس لهم هذه السلطة لأنهم بشر، وقد أنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩٠ ـ ٩٤.

(٢) انظر: تفسير المنار ١/٣١٥.

إن من ثمار العقيدة التخلص من سلطات رجال الكهنوت فليست هناك وصاية من السماء على الأرض بعد انتهاء عصر النّبوّة.

والإسلام حيّ متحرك في قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ما زال يحمل روح النّبوّة، وتشريع محمد، ومصباح الهدى، لأنه رسالة السماء إلى الأرض وهي حيّة باستمرار، متحرّكة على الدوام:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1].

ج ـ الإيمان بالقدر خيره وشره:

ومن ثمرات العقيدة الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره حلوه، ومره.

والإيمان بالقدر استسلام كامل لله، لأن العبد الذي يحب سيده يعلم تمام العلم أن سيده لا يتصرف إلاّ لحكمة، وبهذا تهدأ نفسه أمام كل حدث، ويتعالى قلبه على كل خطب، ومهما اهتزّت الدّنيا أمامه فهو ثابت كالجبال الشمّ لا تزعزعها الرياح أو تهزّها الأعاصير، ذلك لأن ما يتخيّله قصير النظر شرّاً فهو في الحكمة الإلهية خير: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[2].

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩. (٢) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

ومشكلة الشر مشكلة قديمة، فالكثير من الناس يستبد بهم التشاؤم في هذه الحياة، لأنهم لا يستطيعون أن يخضعوا هذه الدنيا لرغباتهم ليحققوا من خلال هذا الخضوع شهواتهم وملذاتهم، ومن هنا انطلق مذهب التشاؤم يعلن عن نفسه ويفصح عن وجوده.

وفي حقيقة الأمر نقول كما قال العقاد: «ليس الشر مشكلة كونية ولا مشكلة عقلية إذا أردنا بالمشكلة أنها شيء متناقض عصيّ على الفهم والإدراك، ولكنه في حقيقته مشكلة الشعور الإنساني الذي يرفض الألم، ويتمنى أن يكون شعوره بالسرور غالباً على طبائع الأمور.

وإذا كان في هذا الوجود حكمته التي تطابق كل حالة من حالاته فلا بد من حكمة فيه تطابق طبيعة ذلك الشعور، ولا تعلم من حكمة تطابق طبيعة ذلك الشعور غير الدين»[1].

ومعنى هذا أن العقاد يقرر أن الدين هو الذي يقضي على هذا التشاؤم حينما يؤمن الإنسان بأنه مؤمن بحكمة خالقه ومن هنا تستريح النفس، ويهدأ القلب، بل يتحول الألم إلى عبادة، والقلق إلى سكينة، والاضطراب إلى هدوء.

يقول بعض الكتّاب: «أن المحن والآلام مع مرارة

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٢.

مـذاقهـا ـ إذا أحسن استقبـالهـا ـ تشـد وتصقـل النفس الإنسـانية. . . إن انتقـاء صور المحن والآلام وحـدهـا من الحياة، وجعلها العنصر السائد الوحيد فيها ليس من الـدقة العقليـة في شيء، إن الحيـاة بـالفـرح والتـرح، والبؤس والنعمـة، والصحـة والمـرض والضحـك والبكـاء والـورود والشوك، والحرب والسلام والغنى والفقر، والميلاد والموت، والأعيـاد والمآتم، ومـا إلى ذلـك من المتقـابـلات التي لا يحصرها عد. . . والمهم أن تعلم أن الحياة على هذا النحو تقدم للإنسان أنواعاً جديدة متواصلة من التجربة مما يتطلبه موقف المسؤولية الهادف»[1].

على أية حال كانت لقد هزت نفسي في مجال الإيمان بالقضاء والقدر عبارات من وحْي القلم للرافعي نذكر منها ما يلي:

١ ـ «لقد كان المسلم يضـرب بالسيف في سبيـل الله، فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه فما يحسها إلاّ كأنّها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يلقونه ويعانقونه».

٢ ـ «كان يبتلى في نفسه وماله فلا يشعر في ذلـك أنه المرزأ المبتلى يعرف فيـه الحزن والانكسـار بل تـظهر فيـه

(١) انظر: «في الدين المقارن» ٢٧١.

الإنسانية المنتصرة كما يظهر التاريخ الظافر في بطله العظيم أصيب في كل موضع من جسمه بجراح، فهي جراح وتشويه وألم، وهي شهادة النصر».

٣ - «ولم تكن أثقال المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه بل كانت له أسباب قوة وسمو كالنسر المخلوق لطبقات الجو العليا يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين».

٤ - «ولن يكون الإسلام صحيحاً تامّاً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيّه في أخلاق الله، فما هو بشخص يضبط طبيعته، يقهرها مرة، وتقهره مراراً، ولكنها طبيعةً تضبط شخصها فهي قانون وجوده، لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟ لا يخاف من شيء. وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟ لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟ أيها الأسد هل أنت بجملتك إلّا في طبيعة مخالبك وأنيابك؟[1].

على أننا لا نعدو الصواب حينما نقول: إنها مشيئة الله، وهي مشيئة وراءها حكمة ليست تجري اعتباطاً، لأن كل أفعال الله تعالى تحدث عن علم وحكمة.

وإذا بحث الإنسان بعقله، ودقق بفكره فإنّه لا شك

(١) انظر: هذه النصوص في وحي القلم ٢ ١٥، ١٧.

سيصل إلى أن وراء هذه الأحداث خيراً عاماً للبشرية، ولو أطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع.

وقد عالج هذه الفكرة الإمام محمد عبده حينما أراد أن يقلع من أذهان بعض الناس جريان الأحداث بلا أسباب أو علل قائلاً: «إن من الناس من يظن أن معنى إسناد الشيء إلى مشيئته هو أن الله تعالى يفعله بلا سبب، ولا جريان على سنّة من سُنَنِه في نظام خلقه، وليست كذلك...

فإن كل شيء بمشيئة الله تعالى، وكلّ شيء عنده بمقدار أي بنظام وتقديرٍ موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل»[1].

ونقترب من الحقيقة إذا قلنا: إن القرآن الكريم بإيجازه البليغ وضع الأمر في نصابه والنقاط على حروفها حينما قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ

---

(1) انظر: تفسير المنار ٤٧٨/٢، ٤٧٩، نقلاً عن «القرآن نظرية عصرية جديدة» ١١.

﴿ٱلْمُهْتَدُونَ﴾[1].

منطق رائع، وحكمة بالغة، تشعر وأنت تسمع هذه الحقيقة القرآنية أو تقرؤها أن المنهج الذي رسمناه في مكونات العقيدة، وبخاصة منهج العبودية يتجلى بأوضح معانيه في هذا النص القرآني فما الخوف، والجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات إلاّ امتحان لهذه العبودية، واختبار لها، فإذا اجتازت النفس هذا الاختبار أو هذا الامتحان كانت صابرة على صعوبته وقسوته، وما الصبر إلاّ ثمرة من ثمار العبودية، لأن رائد هذه العبودية الانقياد لله، والتسليم لأمره والخضوع لقدره والإذعان لقضائه برضى وإقرار، وما أعظم هذه الإشارة القرآنية: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ فلمَ أجزع وأنا صنعة من صنع الله؟ ولم أحزن؟ وأنا لا أملك لنفسي شيئاً، بل لا أملك شيئاً؟ ولم أخاف؟ وأنا أعلم أنّني راجع إلى الله فالمبدأ: إنا لله والنهاية الرجوع لله، ولا نملك إلاّ أن نعيش في ظلال العبودية، ونتحرك باسم هذه العبودية، ونعمل تحت قيادة هذه العبودية فالعبودية شعارنا ومصباحنا وبهذا الاعتبار كان الرضا بالقدر، والتسليم للقضاء ثمرة من ثمار العقيدة.

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٥، ١٥٦.

د ـ مشكلة تحتاج إلى حل:

وتعترض طريقنا الفكري في مجال القضاء والقدر آية قرآنية ظاهرها أن الحسنات التي يقدّرها الله لعباده من صنعه، والسيئات التي يقدّرها الله لعباده من صنع عباده:

﴿ مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾[1].

وخير إجابة لإزالة هذا الإشكال هي إجابة الإمام محمد عبده في كتابه «مشكلات القرآن» حيث ذكر أن للآية معنى أدقّ يشعر به ذو وجدان أرق مما يجده الغافل من سائر الخلْق، وهو أن ما وجدْتَ من فرح ومسرة، وما تمتعت به من لذة حسيّة أو عقليّة فهو الخير الذي ساقه الله إليك، واختاره لك، وما خلقت إلاّ لتكون سعيداً بما وهبك، أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك ولو نفذت بصيرتك إلى سر الحكمة فيما سيق إليك لفرحت بالمحزن فرحك بالسار وإنما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار ما لم يختره لك العليم بك، المدبر لشأنك.

ولو نظرت إلى العالم نظرة من يعرفه حقّ المعرفة،

---

(١) سورة النساء: آية ٧٩.

وأخذته كما هو على ما هو عليه لكانت المصائب لديك بمنزلة التوابل الحريقة، يضيفها طاهيك على ما يهيء لك من طعام ليزيده حسن طعم، فإن اللذة التي تجدها في اللقمة إنما هي لذة التأديب، ومتاع التعليم والتهذيب، وهو متاع تجتني فائدته، ولا تلتزم طريقته، فكلما يسّر طالب الأدب أن يتحمل المشقة في تحصيله، وأن يلتذ بما يلاقيه من تعب فيه يسره، كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام إلى مستوى يجد نفسه فيه متمتّعاً بما حصل، بالغاً ما أمل[1].

هـ ـ مخيّر أم مسير؟:

وهي مشكلة أخرى متصلة بالقضاء والقدر، ومن المشكلات التي فاض فيها علماء الكلام وبخاصة أهل السنة والمعتزلة ونحن لا نستطيع في هذا البحث الضيق أن نعرض آراء الفرق الإسلامية في أفعال العباد خيرها وشرّها، حلوها ومرها، ولكن الذي أحب أن أشير إليه أن للإنسان اختياراً، ينبعث من قدرة خاصة ركبت فيه، وعلى أساس هذه القدرة يكون الثواب والعقاب والجنة والنار.

على أنه لا يغيب عن أذهاننا أن ونعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان يريدنا بلا معارض وبلا موسوس فهو قادر على ذلك، وإذا كان يريدنا أن نكون مقهورين على الطاعة فهو

---

(١) مشكلات القرآن ٧٤.

قادر على ذلك، ولكنه يريدنا أن نأتي إليه باختيارنا، وأن نعبده اختياراً من أنفسنا وليس قهراً. ومن هنا فكان لا بد أن يكون هناك الإيمان والمعصية هذا له حلاوة... وهذا له إغراء عاجل ليتمّ الاختيار عن حقيقة واقعة، وليكون هذا الاختيار هو الطريق إلى الجنّة، وإلى الحياة الطيبة في الدنيا، ولذلك فإن وجود الشيطان وإغراءاته، وكل ما هو موجود في الحياة الدنيا، إنما هو ضرورة لازمة للطاعة، فلو أنها ليست موجودة، لكان الإنسان مقهوراً على الطاعة، ليس له طريق غيرها.. ولأنتفت بذلك كل الحكمة من الجزاء والعقاب، ولأنتفت حكمة خلق الحياة، والدنيا والآخرة[1].

والقرآن الكريم تناول هذه الحرية حرية الاختيار التي أعطيت للإنسان في قول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[2] ذلكَ لأن إكراه الناس على الإيمان يتنافى مع حرية الاختيار ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3].

في قوله تعالى:

---

(١) معجزة القرآن: ٤١٨.

(٢) سورة يونس: الآية ٩٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٢٩.

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[1].

وفي قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾[2].

إن هـذه الآيات تشير في وضوح لإخفاء فيه أن في الإنسان منطقةً حرة تدفعه إلى العمل والسلوك، فإن كان عمله أو سلوكه مطلباً دينياً وتنفيذاً لأوامر شرعية فهو مثاب مكرم، وإن كان عمله أو سلوكه مصطدماً بالدّين. وبالقيم وبالأخلاق، وبالبناء الاجتماعي فهو مؤاخذ معاقب.

أمـا قبل أن تخـرج حريتـه إلى حيز التنفيـذ فهـو غيـر محـاسب عليها، ولعلنـا قد استـوفينـا الحـديث عن مشكلة القضاء والقدر بعد هذا العرض الذي بيّناه.

و ـ القضاء على الأمراض النفسية:

من ثمار العقيدة أن المسلم الذي تكونت فيه العقيدة بمكـوناتهـا الأربعة، فـإن الأمـراض النفسيـة التي استبـدت بالإنسان في مختلف العصور، وبخاصة في عصرنا الحاضر لا تجد طريقاً إلى نفسه.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٢) سورة فصلت: الآية ١٧.

إن إنسان هذا العصر تستبد به الهموم، وتطارده المشكلات ولا يستطيع بقوته المادّية أو قدراته العقليّة أو بلوغه الثقافي أن ينتصر على ما يصادفه من مشكلات أو يتجاوز ما يقف في طريقه من صخور وأشواك مما يجعله أن يهرب من حياته أو يسقط صريعاً مُؤْثِراً الانتحار على الحياة، واليأس على الأمل.

وقد لخص عالم النفس الشهير البروفسور «يانج» تجاربه عن هذه الأمراض في الكلمات الآتية:

«طلب مني أناس كثيرون من جميع الدول المتحضّرة مشورة لأمراضهم النفسية في السنوات الثلاثين الأخيرة.

ولم تكن مشكلة أحد من هؤلاء المرضى الذين جاوزوا النصف الأول من حياتهم، وهو ما بعد ٣٥ سنة إلاّ الحرمان من العقيدة الدينية.

ويمكن أن يقال: إن مرضهم لم يكن إلاّ لأنهم فقدوا الشيء الذي تعطيه الأديان الحاضرة للمؤمنين بها في كل عصر، ولم يُشْفَ أحد من هؤلاء المرضى إلاّ عندما استرجع فكرته الدينية»[1].

---

(١) الإسلام يتحدى ٢٨١.

وما أعظم الكلمات المشرقة التي كتبها الأستاذ «كريس موريسون» رئيس أكاديمية نيويورك للعلوم حيث يقول:

«إن الاحتشام والاحترام والسخاء، وعظمة الأخلاق والقيم، والمشاعر السامية، وكل ما يمكن اعتباره نفحات إلهية لا يمكن الحصول عليها عن طريق الإلحاد».

فالإلحاد نوع من الأنانية حيث يجلس الإنسان على كرسيّ الله.

لسوف تقضي هذه الحضارة بدون العقيدة والدين.

سوف يتحول النظام إلى فوضى.

سوف ينعدم التوازن، وضبط النفس والتماسك.

سوف يتفشى الشر في كل مكان.

إنها لحاجة ملحة أن نقوي من صلتنا وعلاقتنا بالله[1].

---

(١) انظر: الإسلام يتحدّى ٢٨١.

الفصل الثالث

أثر العقيدة في الفرد

تمهيد

كما تشرق الشمس، فتفجر بشروقها ينبوع الضوء المسمّى بالنّهار تشرق العقيدة في نفس المسلم، فتولد ينبوع الحياة، الحياة التي ترتفع بالإنسان إلى الملأ الأعلى، لصفاء روحه وإشراق نفسه، وطهارة قلبه.

وكما تشتعل النّار في القوة الكامنة في الحطب، تشتعل العقيدة في النفس الهامدة، والقلب الجامد، فتلتهب العزائم، وتنبعث الحرارة، ويدبّ النشاط.

والعقيدة هي الطاقة الكبرى التي تحافظ على بناء الإنسان من الانهيار لأن هذه العقيدة تحتفظ في جوهرها بقوة سماوية تخضع الدنيا كلها، والحياة بأسرها لسلطانها، فبالعقيدة «يكون الفقير معدماً ويتعفّف، ويكون الغني موسراً ويتصدق، ويكون الشّره طامعاً ويمسك، ويكون القوي قادراً ويحجم».

وبالعقيدة يخلع المسلم الدنيا من قلبه «ويسخو بكل

مضنون فيها فيعفو عن كثير، ويطمع في غاياتها العليا فيعفو عن كثير، ويدرك أن الحلال وإن حلّ فوراءه حسابه، وأن الحرام ليس إلّا تعلل ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقاب الأبد».

«وبالعقيدة يمشي المسلم في طريق الحياة كأنه يمشي إلى الجنة بخطوات مسدّدة لا تزيغ ولا تنحرف، فلا شرٍ ولا رذيلة، ودنياه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً ما دامت في قلبه طبيعة السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر النّاس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غني كامل إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها، بل القوة في الروح التي تتصرف بطبيعة الوجود»[1].

والعقيدة في الإسلام إن لم تتحول إلى سلوك في نفس الفرد فهي عقيدة لا تنبض بالحياة، نعم إنها طاقة، ولكن ما قيمة الطاقة إذا ظلت كامنة في مكانها، ولم يمتد تيارها إلى سلوك الإنسان لتحدث فيه الضوء، والحرارة، والنور.

---

(١) العبارات التي بين قوسين مقتبسة من وحي القلم للرافعي ٢/ ٩.

أَرْكَانُ العَقِيدَة

وقد شرع الله تعالى ضروباً معينة من العبادات هي أركان العقيدة لتنعكس آثارها من الفرد إلى المجتمع، وهي ليست غاية في ذاتها، ولكنها وسيلة لطهارة النفس، وسلامة القلب، ونظافة الضمير، وإشراق الروح لينعم بذلك كله المجتمع، لأن هذه الآثار تتحول في النهاية إليه، وبذلك يصبح المجتمع المثالي الذي يفهم رسالته في الحياة، ومكانته في الوجود.

ومن هذه الأركان: الصّلاة.

أ ـ أثر الصلاة في بناء الفرد المسلم:

لا يتسع الموقف للكتابة عن هذا الأثر، فمعظم الكتب المتعلقة بالدين لا تغفل هذا الركن من أركان العقيدة، ولكنني سأكتفي فقط بذكر نص من كتاب وحي القلم للرافعي عن أثر الصلاة في بناء المسلم وفيه الكفاية فماذا قال الرافعي رحمه الله:

«بالانصراف إلى الصلاة، وجمع النّية عليها يستشعر المسلم أنه قد حطّم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان وخرج منها إلى روحانية لا يحدّ فيها إلاّ بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن منتصب مع الكائنات يسبّح بحمده.

وبالتولّي شطر القِبْلة في سمتها الذي لا يتغير على اختلاف أوضاع الأرض يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة. فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها. وبالركوع والسجود بين يدي الله يشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من جود الكون.

وبالجلسة في الصلاة، وقراءة التحيات الطيبات يكون المسلم جالساً فوق الدنيا، يحمد الله، ويسلم على نبيه وملائكته، ويشهد ويدعو.

وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة يقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتي السلام والرحمة.

هي لحظات من الحياة كل يوم في غير أشياء هذه الدنيا

لجمع الشهوات وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة، ولتمزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس، فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود، فتشعر الروح أنها تنمو وتتسع.

هي خمس صلوات، وهي كذلك خمس مرات، يفرغ فيه القلب ممّا امتلأ به من الدنيا فما أدقّ وأبدع وأصدق قوله ﷺ:

«جعلت قرّة عيني في الصلاة»(١).

ومن أركان العقيدة الصوم:

ب ـ أثر الصوم في بناء الفرد المسلم:

وإلى جانب الصلاة ركن آخر من أركان العبادة وهو الصوم، والصوم تربية للنفس، وتهذيب للقلب، وتخفّف من ملذات الطعام والشراب، وليس حرمان المعدة من الطّعام والشراب في فترة محدودة من الزمن لمجرد الحرمان، ولكن لتطهير هذه المعدة وإصلاحها، وتنظيف البدن من الفضلات والرواسب، والتخفف من ثقل البطن بالشّحم، ذلك لأن المعدة لو تركت وشأنها لأدّى ذلك إلى فسادها وبفسادها

---

(١) انظر: وحي القلم ١٢/٢، ١٣.

يفسد البدن، فلا يقوم بوظيفته ويصبح الفرد، حامل هذا البدن عضواً أشلّ بين أعضاء المجتمع.

والصوم يعوّد الصبر، ويعلّم ضبط النفس، ويربّي في الإنسان ملكة التقوى والإيمان، فأمامه ملذات الطعام والشراب ومع ذلك لا تمتدّ يده إليها، لأن قوة العقيدة تحول بينه وبين ما يريد، والصوم يكوّن في المؤمن عاطفة الرحمة، فإحساسه بالجوع يجعله يمدّ يده إلى الفقراء بما يمنع عنهم غائلة الجوع، وبذلك يتعاون على أن يسد باب الفقر في بناء المجتمع، ذلك الفقر الذي إن استشرى داؤه وعمّ خطره، أصبح وبالاً على المجتمع، وخطباً على الأمة، فكم من الفقراء دفعهم البؤس والحرمان إلى سلوك تبرأ منه الفضيلة والأخلاق فتمتد يدُهم إلى الحرام، ولذلك قيل: إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر: خذني معك.

والإسلام حريص على ألا يستفحل خطر الفقر في الأمة، ولذلك كان الصوم وسيلة تربية، ومدرسة تهذيب في هذا المجال، والصوم ليس محصوراً في الامتناع عن الطعام والشراب فقط، ولكنه صوم الألسنة عن اللغو، والعيون عن النظر إلى ما حرّم الله والقلوب عما سوى الله.

ومن أركان العقيدة الزكاة:

جـ ـ أثر الزكاة في بناء الفرد المسلم:

إن الزكاة علاج ناجع لفساد المجتمع من الوجهة الاقتصادية فالناس مختلفون في قدراتهم ومواهبهم، يتباينون في حظوظهم من الغنى والمال، فهناك الصبي اليتيم، والأرملة، والأم العجوز، والشيخ المسن، والمريض، وذو العاهة والأعمى، والمقعد... وكل هذه الأصناف في حاجة ماسّة إلى الحياة الكريمة ولا يخلو مجتمع من المجتمعات من هذه الأنواع التي تكوّن طبقة من طبقاته، وعنصراً من عناصر وجوده وحياته.

إن الزكاة فرضت على القادرين لتطهّرهم من طمع النفس، ومرض الأنانية، ليكونوا مصدر رحمة نحو إخوانهم الذين تقهرهم الحاجة، ويَسْتَبِدّ بهم البؤس، إن الهدف من الزكاة هو أن يغتني الفقراء بها، وباغتنائهم يغلق باب الفتنة في المجتمع، فلا تسفك دماء، ولا ينهب مال، ولا يقطع طريق، لأن راية المودّة والحب ترفرف فوق هذا المجتمع، فيشعر أفراده بالطمأنينة والاستقرار.

والزكاة لها جانبان جانب فرديّ، وجانب اجتماعي، والذي أخصّه بالحديث هنا هو الفرد الغني، فإذا كان الفرد الغنيّ تملأ جوانب قلبه العقيدة التي تحدثنا عنها فيما سبق، فإن هذا الفرد يشعر من قرارة نفسه أنه كان ضالاً فهداه الله،

وكان عائلاً فأغناه الله، وكان فقيراً فأعطاه الله، وكان محروماً فأفاض الله عليه من نعمة المال ما جعله موسراً وغنيًّا.

إن هذا المال الذي في يديه هو مال الله، ومال الله أمانة في يده حدّد له حدوداً في الانتفاع به، ورسم له طريقاً لاستهلاكه.

يقول الشهيد عبدالقادر عودة في كتابه: «المال والحكم في الإسلام» ما نصه: «ولقد أباح الله جلّ شأنه للبشر أن يستهلكوا من ماله كل ما يقتضي الانتفاع به أن يستهلك، فأباح لهم استهلاك الطعام والشراب، والثمار واللباس والأثاث، كما أباح لهم استهلاك جميع الطيبات، وجميع ما تقتضي ظروف حياتهم استهلاكه والنصوص في ذلك صريحة، منها: قوله جلّ شأنه:

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[1].

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾[3].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ٦٠.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٢.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾[١].

إلى أن يقول: «وحق البشر في الانتفاع بمال الله ليس حقاً مطلقاً، وإنما هو حق مقيد بقيود، فليس لهم أن ينتفعوا بهذا المال كما يشاءون، وإنما لهم أن ينتفعوا به فقط في حدود حاجتهم لهذا المال... بشرط أن يكون ذلك كله في حدود الاعتدال دون سرف أو تقتير»[٢].

وإذا كان للفرد حق التمتع بهذا المال، فإن للغير حقوقاً فيه، ومن أهم هذه الحقوق الزكاة، «وهي فريضة في مال الله

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٠، ٨١.

(٢) انظر المال والحكم في الإسلام للشهيد عبدالقادر عودة ٣٢/٣٣.

فعلى كل فرد في يده شيء من مال الله أن يخرجها من هذا المال إذا بلغ قدراً معيّناً، ويؤديها إلى الحاكم ليردهـا على ذوي الحاجة طبقاً لنصوص القرآن»[1].

ومن أركان العقيدة الحج:

د ـ أثر الحج في بناء الفرد المسلم:

في الحج يجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في مكان واحد يذكرون الله، ويؤدون مناسكه، متجردين من كل ما يشغلهم في الحياة، وفي الحج يشاهد المسلم قبلته التي يتجه إليه في صلاته كل يوم خمس مرات فيزداد إيمانه، ويقوى يقينه:

وفي الحج تطأ قدمه أرضاً طيبة طاهرة، سارت عليها أقدام الصحابة والتابعين، فتتجدد في نفسه أحداث التاريخ، وتعرض على ذاكرته صفحات البطولة، فيدفعه هذا الإحساس المتدفق، والشعور المنبعث في نفسه إلى أن يسلك نفس الطريق، ويتبع نفس المنهج، ويتحلى بنفس السيرة، وفي هذا الركن إضافة أخرى لتربية الفرد ليتم صلاحه، ويستقيم أمره.

---

(١) المال والحكم في الإسلام ٣٥.

والحج إلى جانب ذلك دعوة لوحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فالذين وفدوا إلى ربهم، واستجابوا إلى دعوة أبيهم إبراهيم يقفون في موقف واحد ويطوفون حول مكان واحد، ويسعون في طريق واحد متجردين إلى الله، يملأ الخشوع قلوبهم، لباسهم واحد، ونداؤهم واحد، ألا يدل ذلك على الوحدة الإسلامية التي تجدد نفسها في كل عام مرة؟.

ألا يدلُّ ذلك على المساواة بين المسلمين لا فرق بين غني وفقير؟ فالكل يدعو، والكل يرجو، والكل يطلب الرّحمة، والكل يدعو إلى توحيد الكلمة، ورفع راية الإسلام.

هذه هي أركان العقيدة بالنسبة للفرد المسلم فإذا ما تشابكت فروعها وتلاحمت أغصانها استطاعت أن تنقل الفرد المسلم إلى مكانه في بناء المجتمع، ليكون لبنة صالحة، وقوة دافعة، يخطو بها المجتمع إلى الأمام خطوات تعود على أفراده بالسعادة والخير والبركة، والنمو، والرّقي والتّقدم.

وبعد هذه الجولة في أثر العقيدة في الفرد من ناحية تحقيق أركانها في نفس المسلم حيث يواجه ربه كل يوم خمس مرات يقف بين يديه، فتنطلق روحه من قيود الحياة المادّية التي تضغط عليها، وذلك بالصلاة، ويتعالى على

شهوات النفس وملذّاتها، وذلك بالصوم، ويكسر قيود حبّ المال وطغيانه وذلك بالزكاة، ويتجرّد لربه طائفاً حول الكعبة، مركز وجوده الديني، ليس عليه لباس إلاّ ثياب الإحرام وهو لباس التقوى، وذلك بالحج.

أقول بعد هذه الجولة ننتقل إلى جولة أخرى نلمس فيها أثر العقيدة في تربية الفرد في ضوء تعاليم الإسلام ومبادئه، وقيمه وأخلاقه، وأهدافه وغاياته.

الفصل الرابع

العقيدة والعلم

أثر العقيدة في تحصيل العلم والمعرفة:

لقد تعددت كلمة «علم» في القرآن الكريم وهو الكتاب الذي ضمّ بين دفّتيه العقيدة الإسلامية بمكوناتها وثمراتها، وأركانها فليست هناك دعوة لتربية الفرد أو المجتمع في القرآن الكريم إلاّ وهي قائمة على العقيدة.

نعم تعدّدت كلمة «علم» فشغلت في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ١٣ صفحة، كلها تدور حول العلم ومشتقاته.

إن هذا بدون شك يدلّ على أن القرآن الكريم أتاح للعقل البشري فرصاً عديدة في أن يبذل كل ما في وسعه من أجل الحصول على العلم والمعرفة.

إن الكون كله كتاب كبير إذا قلبت صفحاته أدهشتك أسراره، وغمرتك عجائبه، واستولت على نفسك غرائبه. وقد دعا القرآن الكريم أن ننظر في هذا الكتاب بوعي وتدبر، وفهم وتفكر: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ

ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ﴾[1].

ولم يكتف القرآن بقراءة هذا الكون المفتوح، وما حوى، بل وجه الإنسان إلى ذاته ليقف على أسرارها، وملكها العجيب: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾[2].

وهؤلاء الذين أيقظوا عقولهم من أجل أن تسبح في ملكوت السموات والأرض ليسجلوا أسرار الوجود أو النفس هم العلماء الذي فصّل الله لهم الآيات: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾[3].

وهم العلماء الذين رفع الله قدرهم، وأعزّ مكانتهم ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[4].

وفي الحقيقة إن تربية المسلم من طريق العلم والمعرفة هدف كبير من أهداف الإسلام، «فالمجال الطبيعي لملكات

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩٠، ١٩١.
(٢) سورة الذاريات: الآية ٢١.
(٣) سورة التوبة: الآية ١١.
(٤) سورة المجادلة: الآية ١١.

الإنسان العليا هي البحث في هذا الكون.. وكل عائق اصطنع لمنع العقل الإنساني من التجوال في الآفاق، والائتناس بمجالي القدرة العليا في الأرض والسماء، فهو عائق افتعله الجهل والضلال، والإسلام بريء منه.

وليس للإنسان المسلم صومعة يعتزل فيها، ويحتبس نشاطه وراء جدرانها، كلّا فالعالم أجمع صومعة المسلم، والكون الكبير مسرح نشاطه»[1].

ولا أبالغ إذا قلت: لو نظرنا إلى معظم آيات العبادات والمعاملات في القرآن الكريم نجدها قليلة بالنسبة لآيات الكون مما يزيدنا إقناعاً بأن القرآن الكريم فتح باب العقل لعلوم الدنيا والدين أما علوم الدين، فقد عددها ابن خلدون في كتابه: المقدمة معرّفاً كل علم، مبيناً هدفه وفائدته، وقد حصر علوم الدين في علم القراءات ـ التفسير ـ الحديث ـ الفقه ـ الفرائض ـ أصول الفقه ـ الخلافيات ـ الجدل ـ علم الكلام ـ التصوف ـ علم تعبير الرؤيا ـ علوم اللسان[2].

وأما علوم الدنيا:

فلا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا: إن القرآن الكريم أعطانا

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة ٥٦، ٥٧.

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون ٤٠٢، ٤٥٠.

في مجالها مفتاح العلم والمعرفة في كثير من آياته، فهذا هو كتاب «معترك القرآن في إعجاز القرآن» للسيوطي ينص على أن القرآن الكريم فيه من الأسرار العلمية والكونية الكثير ومما جاء فيه قوله: «فنظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار، والشمس والقمر ومنازله، والنجوم والبروج، وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت... أما الطب فمداره على حفظ النّظام والصّحة، واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1].

وفي القرآن أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالخياطة والهندسة، والنجارة، والفلاحة، والصيد، والغوص، والصباغة، والملاحة، والكتاب، والبيع والشراء، والصّبغ، والكيل والوزن، ذكر ذلك السيوطي في الكتاب المذكور مستدلاً على كل هذه الصنائع بآيات من القرآن الكريم، وبعد عرض هذه الصنائع عقب عليها بقوله:

«وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات والمشروبات والمنتوجات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٧. وانظر معترك الأقران ٢٠.

ما يحقق معنى قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

ومعنى ذلك أن القرآن الكريم لم يكن مقصوراً على المواعظ التعبيرية فقط، وإنما هو كما يقول بعض الفلاسفة المعاصرين: «كتاب ميتافيزيقي، وأخلاقي، وعملي، وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله، فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه»[2].

وقد أشار الأستاذ عبدالوهاب خلاف إلى هذه الحقيقة فقد بيّن أن القرآن الكريم: «جاء بآيات تفهم منها سنن كونيّة، ونواميس طبيعية كشف العلم الحديث في كل عصر براهينها، ودلّ على أن الآيات التي لفتت إليها من عند الله، لأن الناس ما كان لهم بها من علم، وما وصلوا إلى حقائقها، وإنما كان استدلالهم بظواهرها، فكلّما كشف البحث العلمي سنّة كونيّة، وظهر أن آية في القرآن أشارت إلى هذه السنة قام

---

(١) انظر: إعجاز القرآن ١ ـ ٢١ ـ ٢٢، وانظر: أيضاً التفسير والمفسرون للمرحوم الشيخ الذهبي ٤٨١/١ وانظر: سورة الأنعام: الآية ٣٨.

(٢) انظر: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام د/ علي سامي النشار ١، ٢. نقلاً عن كتاب: النزعة العقلية في تفكير المعتزلة ١٨٠.

برهان جديد على أن القرآن من عند الله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

ومن الآيات التي لفتت النظر إلى البحث العلمي قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[3].

---

(١) سورة فصلت: الآية ٥٣.

(٢) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[1].

وقبل أن نختم الحديث عن هذه النقطة أحب أن أبيّن أن الفرد المسلم من منطلق قرآنه، وعلى هدى عقيدته اتجه إلى العلم ليأخذه أينما وجد، وتفتح عقله إلى علم غيره من العلوم المادية، فنقله وأضاف إليه من عقله المشرق، وفكره النير ما كان زاداً لا ينضب للإنسانية جمعاء في الشرق أو الغرب في كل العصور إلى أن قامت النهضة الأوروبية، وهي في حقيقة أمرها أشعلتها شرارة الفكر الإسلامي.

ويرجع بعض الكتاب سرّ تأخر المسلمين في ميدان العلوم الكونية إلى أنهم أغلقوا عيونهم عن هذا الكون، والتزمت عقولهم جانب السلبية أمام آياته التي تملأ السموات

---

(١) سورة المؤمنون: الآية ١٢، ١٣، ١٤، وانظر: علم أصول الفقه ٢٩، ٣٠.

والأرض على حين برزت هذه العقـول لتبحث ما ليس في طاقتها، وما لا يقع في دائرتها، وذلك في مجال البحث عن ذات الله ، وتساءلوا هل صفات الله عين ذاته أم غير ذاته .

إن التفكير الإسلامي عند علماء الكلام ، وبعض فلاسفة المسلمين أصيب «بنكسة خطيرة عندما انقلبت مباحثه رأساً على عقب فأصبح تفكيراً سلبيّاً لمادة الكون، إيجابياً بالنسبة لذات الله .

ما هذا الارتكاس المستغرب؟ ومن أين نجد له سنداً في ديننا؟ .

وماذا أفدنا منه إلاّ الدّمار العقلي والروحيّ، والانهيار الإنسانيّ والعمراني .

إن الرجل الإنجليزي الذي اكتشف قوة البخار، والذي ترك عقله وراء غليان الماء، وضغط مادته المتحوّلة من سائل إلى غـاز، هذا المفكّر كان أقـرب إلى فطرة الإسلام من علمائنا الذين تساءلـوا : هل صفـات الله عين ذاته؟ أم غيـر ذاته؟ أم هي لا عين ولا غير، وعقدوا لذلك مبحثاً قسمهم فرقاً وخرج منه جمهورهم مخبولاً لا معقولاً»[1].

---

(١) انظر: الإسلام والطاقات المعطلة ٥٦ .

وهذا النص الذي اقتبسته من كتاب: الإسلام والطاقات المعطلة للأستاذ محمد الغزالي لا يبتعد عن الحقيقة كثيراً.

أجل، إن علماء الكلام كانت الثقافة الوافدة دافعهم إلى هذه الدراسات وهي ثقافة كانت تحلّق حول الذات العليّة بضروب من التخبط والانحراف، وقد طفحت على سطح الفكر الإسلامي لتهزه هزّاً عنيفاً، ومن هنا تجرد العقل الإسلامي للصراع مع هذه الأفكار الوافدة مما شغل أذهان الفلاسفة بقضايا لم تفد العقيدة شيئاً لأن العقيدة كما قلنا، فطرة، وعقل، وغيب، وتشريع، وقد علّمنا الإسلام هذا المبدأ العظيم عدم التفكر في ذات الله، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكروا في خلق الله ولا تفكّروا في الله».

ذلك لأن العقل عاجز في تفسير الكثير مما يشاهده، أما ما لم يشاهده فهو أعجز من المشلول الذي لا يستطيع أن يتحرك.

إن «الأشياء الموجودة في الكون لا يعرف الإنسان ذاتها، لا يعرف جوهرها وإنما يعرف صفاتهاومظاهرها.

أي قفزة في السماء مجنونة تلك التي تدفعه أن يترك الأشياء المخلوقة المحدودة الصغيرة التي يعجز عن معرفة

ذاتها، فيحاول أن يحيط بالذات الكبرى ويصل إلى حقيقتها»[1].

فلو التفت هؤلاء العلماء إلى الكون لأراحوا عقولهم وعقولنا من هذا التفكير الذي لا طائل وراءه مع أن الإسلام بعقيدته الصافية وقف حاجزاً بين العقول السليمة وبين التفكير في ذات الله.

أما الكون، فإن الإسلام أطلق سراح العقول فيه لتعرف الله تعالى من خلاله.

لننظر ما يقول الدكتور أحمد زكي رحمه الله في كتابه «مع الله في السماء»، «إن أقرب نجم إلينا يبعد عن الشمس فوق الأربع من السنوات الضوئية أي أن النور وسرعته ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية يقطع المسافة من الشمس إلى أقرب نجم نحو أربع سنوات، إنه على مسافة تبلغ نحواً من ٢٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل.

أنك لو مثلت الشمس بنقطة، من حبر على هذه الصحيفة لتمثل أقرب نجم بنقطة أخرى تبعد عن النقطة الأولى بنحو ٤ أميال».

---

(١) انظر: قبسات من الرسول ٦٦.

«المجرّة قرص عظيم، وهي قرص مفرطح كالرغيف، وقطر القرص نحو ١٠٠،٠٠٠ سنة ضوئية، والسنَّة الضوئية مسافة مقدارها ٦ مليون ميل، فقط هذا القرص نحو من ٦٠٠ ألف مليون مليون ميل»[1].

أنه لكون عظيم يحير العقول، ويدهش الأبصار، لقد أطلق الغربيون عقولهم وأجهزتهم لتسبح في هذا الكون العظيم، ومن خلال هذه العقول والأجهزة يتولد الإيمان ولكن مما يؤسف عليه أننا تركنا هذا الكون لغيرنا، وعشنا نحن في عصورنا المتخلفة، نجري وراء القشور، ونلهث وراء الألفاظ وكأننا قدّمنا للعلم شيئاً، والحقيقة أننا في عصور التخلّف تخلينا عن عقيدتنا التي تدعونا إلى أن ننظر في هذا الملكوت، ونفكر في هذا العالم، في السماء، في الأرض، في الهواء في كل صنعة صنعها الله، في كل خَلْق لمسته يد الله، وبذلك نكون قد أدّينا بعض ما يجب علينا نحو هذا الكون العظيم، وخالقه الأعظم.

---

(١) نقلاً عن قبسات من الرسول ٧، ٦٨.

الفَصْل الخامِس

العَقيدَة وَالعَمَل

أثر العقيدة في العمل:

كلمة العمل في الإسلام مرتبطة بكلمة العلم، فمن عَلِمَ عَمِل، وفي الحديث الشريف: «من عَمِل بما عَلِم ورّثه الله عِلْم ما لم يَعْلم»[1].

ومعنى هذا أنك إذا عملت بما علمت، فتح الله تعالى لك أبواباً من العلم كنت تجهلها، وأنواعاً من المعرفة كنت لا تتبيّنها، فالعلاقة بينهما لا تنفصم عراها فلا عمل بلا علم، ولا قيمة لعلم بلا عمل، بل إن العلم لا تتفجر ينابيعه في نفس المسلم إلاّ إذا كان صاحبه عاملاً.

والعقيدة الإسلامية شعارها: العلم والعمل، وكما تعدّدت كلمة «علم» في القرآن الكريم مرّات عديدة ـ وقد أشرت إلى ذلك سابقاً ـ كذلك تعدّدت كلمة عمل وقد جاءت في آيات كثيرة بصيغ عديدة يصعب حصرها في هذا البحث

---

(١) انظر: كنز الحقائق للمناوي ١١٩.

الضيق[1] وكلها تدور حول العمل ومكانته و«يشرف العمل والعمال في كل مكان أن عدداً من الأنبياء كانوا أنفسهم من العاملين بأيديهم، فنبيّ الله داود كان حدّاداً يصنع الدروع ويأكل من عمل يده، وإدريس كان خيّاطاً، وزكريا كان نجّاراً، وموسى أجيراً يرعى الغنم في مدين، ومحمد عليه السلام كان يرعى الغنم على قراريط لأهالي مكة»[2].

وقد شارك الأنبياء والرسل في شرف العمل بعض الصحابة الذين ملأت سياستهم وقيادتهم للدنيا صفحات التاريخ نذكر من هؤلاء «الزبير بن العوام كان خيّاطاً، وكان علي بن أبي طالب يسقي بالدّلاء على عشرات، وسعد بن أبي وقاص كان يبري النّبل، وعمرو بن العاص كان جزّاراً، وقتيبة بن مسلم كان جمّالاً، والمهلب بن أبي صفرة كان بستانيّاً»[3].

ومفهوم كلمة العمل في الإسلام مفهوم واسع، لأن العمل في الإسلام هو الحركة الإيجابيّة التي تدعو إليها العقيدة ويحث عليها الإسلام، حتى الخليفة نفسه أو الحاكم

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (عمل) فقد شغلت هذه الكلمة ٦ صفحات منه.

(٢) انظر: القرآن نظرة عصرية جديدة ١١٣.

(٣) المرجع السابق والصفحة.

ذاتـه يعتبر في الإســلام عامـلاً، لأنه تـولّى قيادة المسلمين ليعمل من أجل أن يحقق العدل في رعيته لتشعر الرعية بالأمن والطمأنينة، والسلام والرضاء في ظله يقول التاريخ: «إن أبا مسلم الخولاني دَخل يوماً على الخليفة معاوية بن أبي سفيان وحيّاه قائلاً:

السلام عليك أيها الأجير.

فقال له بعض الجالسين:

قل: السلام عليك أيها الأمير.

فقال: السلام عليك أيها الأجير.

فقالوا: قل: أيها الأمير.

فقال: السـلام عليك أيها الأجير.

فقالوا: قل أيها الأمير.

وهنا تدخل معاوية قائلاً:

دعوا أبا مسلم، فإنه أعلم بما يقول، فقال أبو مسلم:

«إنما أنت أجيرٌ أستأجرك ربّ هذه الغنم لرعايتها، فإن أنت هنأت جرباها، وداويت مرضاها، وحبست أولاها على أخرها وفاك سيدك أجرك»[1].

ومقياس العمل في الإسلام هو أن يتيح لكل قـدرة ما

---

(١) المرجع السابق ١١١، ١١٢.

يناسبها ولكل كفاءة ما يلائمها، لأن الإسلام يعترف باختلاف القدرات، وتفاوت المواهب حتى بين الأنبياء والمرسلين فضلاً عن البشر العاديين:

ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .... وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾(١).

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(٢).

على أن الإسلام لا يعترف باختلاف الناس في العمل والتساوي في الأرزاق، لأن هذا مخالف للطبيعة البشرية، فمن يرضى أن يتفوّق على غيره في العمل ثم يأخذ أجره كأجر الخامل سواء بسواء، هذا منطق مرفوض في عقيدة الإسلام، لأن هذا يعقد النفس، ويشعر الفرد بالظلم، وهنا يُفتح باب خطير من الشرور والآثام، ولذلك حرصت عقيدة الإسلام على أن تساير طبيعة البشر في مجال العمل، ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾(٣)

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٣.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١١. (٣) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ﴾[1].

والعقيدة الإسلامية تدفع المسلم للعمل بكل ما يملك من طاقة لأن «الإسلام يحب للمسلم أن يعمل، ويكره له أن يتبطل، ويتكل على غيره، وأحاديث النبي عليه السلام تؤكد الأوامر الإلهية في هذا المعنى مثل قله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

والنبي عليه السلام يقول: «إن الله يحب العبد المحترف، ويكره العبد البطّال» ويقول: «أفضل الكسب كسب الرجل بيده».

وكان الخليفة العظيم عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الإسلامية يقول: «والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فإن من قصر به عمله لا يسرع به حسبه»[3]

والعمل في الإسلام يقوم على الحرية، ففي كل ميدان من ميادين الحياة تظل الحرية رائدة المسلم في عمله

---

(١) سورة النحل: الآية ٧١.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٥.

(٣) انظر: هذه النصوص في حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٧٢، ١٧٣.

الميداني، فله أن يشتغل في الأرض، وله أن يتاجر في العقار والمنقولات، وله أن يستثمر ماله، وله أن يضرب في الأرض حسب ميوله واستعداداته، لكن بشرط واحد ألاّ تضر تصرفاته سلامة المجتمع تطبيقاً لمبدأ: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام»، وما أكثر الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة في مجال حرية العمل.

والعمل في الإسلام ليس وقفاً على طبقة بعينها فهو مكرم بطبيعته، ومن يتصف به مكرَم، سواء كان من طبقة يعتدّ بها المجتمع، وينظر إليها باحترام أو من طبقة أخرى دون ذلك، لأن الإسلام لا يعترف بهذه الطبقية تحقيقاً لمبدأ: «إنما المؤمنون إخوة» فالعمل للجميع شرف ومكرمة.

فهذا علي بن أبي طالب وهو مَن هو في المجتمع الإسلامي، حيث تربى في بيت النبوّة، وحيث كان في مجتمعه باب مدينة العلم يقول: «لم يكن في بيتي شيء آكله، ولو كان في بيت النَّبيّ لبلغني، فانطلقت إلى يهودي في بستان له ببعض نواحي المدينة، واطّلعت عليه من ثغرة في جداره، فقال: ما لك يا أعرابي هل لك في دلو بتَمْرة؟ قلت: نعم، افتح لي البستان، فدخلت فجعلت أنزع الدلو ويعطيني ثمرة حتى ملأت كفّي»[1].

---

(١) انظر: هذا الحديث في: الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين ٤٤.

والسؤال الذي يطرح نفسه في مجال العمل هو: إذا استغل المسلم طاقته واستطاع من خلال عمله الشريف أن يمتلك مالاً فهل يحرم من هذه الملكية كما تقول الشيوعيّة.

وهل يجوز لهذا الفرد بعمله أن يمتلك من المنقولات والعقارات، والسلع الإنتاجية ما يمتلك بدون قيود كما تقول الرأسمالية؟.

في حقيقة الأمر: الإسلام له موقفه المتميّز بين هذين النظامين، ذلك لأنه يعترف بالملكية الخاصة، وفي الوقت نفسه يعترف بالملكية العامة.

ولو كشف الغطاء لكان العائد من هاتين المِلْكِيّتين يجري في مصب واحد وهو خدمة الفرد وخدمة المجتمع معاً أو بعبارة أخرى خدمة المسلم وخدمة الأمة معاً.

فحرية الفرد في العمل والتملك مضبوطة بالضوابط الإسلامية والتعاليم الخلقية، أو بعبارة أخرى مضبوطة بالعقيدة لأنه بهذه العقيدة يستطيع المسلم أن يحوّل ملكيته الخاصة إلى معنى السمو، فالمال مال الله، وهو خليفته في الأرض وما دام الأمر كذلك فنسبة المال إليه لا تتجاوز معنى الرعاية والحفظ، والإنفاق في سبيل الخير والبر ليعمّ النّفع الأفراد والعباد. مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ

ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾[1]، ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾[2]، ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾[3].

وهكذا حوّلت العقيدة هذه الملكيّة إلى معنى من السمو لا تستطيع أنظمة الدنيا الأرضية أن تصل إليه، لأنه نظام مرتبط بالعقيدة.

وللعمل أوقات وساعات أوقات تنشط فيها النفس وساعات يستيقظ فيها العقل، فلأجل كثرة الإنتاج وجودته نجد أن الإسلام يتدخّل في تحديد هذه الأوقات، فالرسول عليه السلام ينصح أن نبكّر إلى العمل فيقول: «باكروا الغدوّ في طلب الرزق، فإن الغدو بركة ونجاح» ويقول: «اللهم بارك لأمتي في بكورها».

وروي عن السيدة فاطمة رضي الله عنها أنها قالت:

مر بي رسول الله ﷺ وأنا مضجعة متصبحة فحركني برجله، ثم قال:

---

(١) سورة النور: الآية ٣٣.

(٢) سورة طه: الآية ٦.

(٣) سورة المائدة: الآية ١٢٠.

«يا بنيّة قومي اشهدي رزق ربّك ولا تكوني من الغافلين، فإن الله يقسم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»[1].

والهجرة إلى العمل في أي مكان في الأرض حينما تضيق السبيل أمام المسلم ويصعب العيش في موطنه وأرضه عمل مشروع، فعليه باسم العقيدة ألّا يخضع للذلّ، أو يستكين للعوز، أو يأنس للفقر مؤثراً السلامة على الارتحال، والكسل على الكفاح، لأن العقيدة تدعو المسلم أن يعمل كريماً، ويحيا كريماً، ويموت كريماً.

﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[2].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ

---

(١) انظر: نصوص هذه الآثار في «القرآن نظرية عصرية جديدة» ١١٥.

(٢) سورة النساء: الآية ١٠٠.

ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾[1].

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴾[2].

علام تدل هذه الآيات المتعَدِّدَة؟.

أليست تحمل في ألفاظها ومعانيها الدعوة إلى الهجرة من أجل العمل؟ وإنّها لدعوة مرتبطة بالعقيدة، فمن رضي بالإقامة في أرض آبائه وأجداده تحت سياط الذل والفقر والعوز والحاجة كانت مسؤوليته كبيرة، وحسابه عسيراً، لأن المسلم بعقيدته قويّ لا يعرف الضعف، عزيز لا يعرف الذّلّ، ولأن المسلم الذي سخرت له السموات والأرض، من العار أن يعيش بغير كرامة، ويحيا بغير عزة.

ومما يدعو إلى الإعجاب في مجال ارتباط العقيدة بالعمل قوله ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها، فله بذلك أجر»[3].

وموطن العجب في هذا الحديث أن الدنيا أعلنت عن

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٥٦.

(٣) عمدة القارىء في شرح صحيح البخاري لبدر الدين العينيّ (باب الحرث والزراعة).

رحيلها وأن الخراب للكون حانت ساعته، ومع ذلك فإن المسلم صاحب العقيدة لا يضيع هذه اللحظات الباقية من عمره في انتظار الموت، ولكن عليه أن يستغلها في حقل العمل، وأي عمل إن الدنيا ستزول، والقيامة ستقوم، ولكن العقيدة تظل تعمل عملها إلى آخر لحظة في الوجود، اغرس الفسيلة، ولا تضيع الوقت حتى لا تحرم من أجر العمل.

يا الله، انتهز هذه اللحظات الباقية من الحياة، واجعلها في ميزان العمل فإن لذلك أجراً.

ويعلّق الأستاذ محمد قطب على هذا الحديث بهذه الكلمات الرائعة:

«يا ألله، يغرسها؟! وما هي؟ فسيلة النخل التي لا تثمر إلّا بعد سنين؟ والقيامة في طريقها أن تقوم؟ وعن يقين؟ يا الله! لن يقول هذا إلّا نبي الإسلام خاتم النبيين!.

وهذا تاريخ الأرض كلها... ليس فيه مثل هذه القبسة من قبسات الرسول»[1].

وأحب قبل أن أختم هذه النقطة أن أشير إلى أن قدسية العمل في الإسلام نلخصها في أهم ركن من أركان العقيدة وهو الصلاة.

---

(١) انظر: قبسات من الرسول ١٨.

فتلاحظ أن الله خفف صلاة الصبح، وجعلها ركعتين فقط وجعل وقتها ضيّقاً ليقوم المسلم مبكراً يغتنم هذه الساعات المباركة، كما مدّ الله في فسحة أول النهار، فلم يطالب المسلم بالصلاة إلى منتصفه حتى يتفرغ لعمله طول النهار.

الفصل السادس

العقيدة والضمير

أثر العقيدة في مجال تربية الضمير:

في ضوء العلم والعمل اللذين تؤثر فيهما العقيدة، وتدفع المسلم إلى أن يعلم ويعمل، ويفكر ويثمر أستطيع أن أضيف إلى هذين العنصرين عنصراً ثالثاً وهو الضمير، فالضمير هو الذي يدفع إلى العلم، والضمير هو الذي يبعث إلى العمل، ولولا الضمير لما تمّ شيء من العلم أو العمل، والإسلام في ضوء العقيدة قد ربّى هذا الضمير تربية متكاملة، فهو الرقيب على العمل، وإن كل عمل خلا من الضمير كان باطلاً، ولغواً، وغير مثمر، ذلك لأن العمل مرتبطٌ بالعقيدة موجه إلى الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ومعنى ذلك أنك بعملك تعبد الله كأنك تراه، فإن لم

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٢.

تكن تراه فإنه يراك، وما دام المسلم يتحرّك في ضوء هذا الضمير، فإن أعماله لا يتسرّب إليها الخلل، ولا يستبد بها الانحراف لأنها وإن كانت أعمالاً ماديّة، لكن ضمير المسلم ينبض في كل خلية من خلاياها، وفي كل شريحة من شرائحها، وإن الذي يتعايش مع عمله، ويوجه إليه كل ما يملك من طاقات يشعر بسعادة غامرة، وسعادة شاملة في جميع أعماله لأنها في حراسة الضمير.

يقول أبو الأعلى المودودي في كتابه: «نحن والحضارة الغربية».

«إن القوة الحقيقية لأمة ما ليست في جيوشها الزاحفة، ولا في أسلحتها اللامعة، ولا في جنودها المتأنقين... بل قوتها هي تلك القوة الروحية التي تفتح العالم»[1].

إنه بقوة هذا الضمير، فكل عمل هو عبارة: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[2]، بقوة هذا الضمير يتحوّل المسلم إلى قوة ربّانية تجعله يرث هذه الأرض: ﴿ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾[3].

---

(١) نحن والحضارة الغربية ٢٥٨.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] أما الذين يعملون بدون مصباح الضمير، فإن أعمالهم مردودة، لأن الضمير لم يختلط بأعمالهم، ولم يمتزج بوجدانهم، «فلا ريب أن ظاهرهم رائق معجب»، «وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم»، وأقوالهم تلذذ الأسماع «وإن يقولوا تسمع لقولهم»، ولكنهم في الحقيقة جثث لا روح فيها! ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾[2] يخافون الناس أكثر مما يخافون الله ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾[3].

﴿ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾[4] وهؤلاء «لا يستطيعون أن يتشاركوا في عمل من الأعمال الخالصة» ﴿ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ

(١) سورة النور: الآية ٥٥.
(٢) سورة المنافقون: الآية ٤.
(٣) سورة النساء: الآية ٧٧.
(٤) سورة النور: الآية ٣٩.

بَجِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾[1].

وبتربية الضمير انتشر الإسلام في بقاع الأرض على يد رجال هاجروا من بلادهم إلى الشرق والغرب متسلحين بسلاح الضمير لنشر دين الله، لا لهدف مادي أو راتب معيشي أو مكافأة تدفعهم إلى العمل، ولكن حبّاً للدين، وإيماناً بالعقيدة، وتنفيذاً للضمير المسلم الحر، الذي يرى أن من واجبه أن يعمل على نشر النور وبث الخير:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[2].

وقد لمس العقاد هذا المعنى في مجال الضمير حينما قال ما نصّه:

«وقد أبت هذه العقيدة على الرجل أن يطيع الحاكم بجزء منه، ويطيع الله بغيره، وأبت على المرأة أن تعطي بدنها في الزواج لصاحبها وتنأى عنه بروحها وسريرتها، وأبت على الإنسان جملة أن يستريح إلى الفصام الوجداني...

---

(١) سورة الحشر: الآية ١٤، انظر: نحن والحضارة الغربية ٢٥٩.
(٢) سورة فصلت: الآية ٣٣.

إن هذا الشأن العظيم ـ شأن العقيدة الشاملة التي تجعل المسلم وحدة كاملة ـ لا يتجلّى واضحاً قويّاً كما يتجلّى من عمل الفرد في نشر العقيدة الإسلامية، فقد أسلم عشرات الملايين في الصحاري الإفريقية على يد تاجر فرد، أو صاحب طريقة منفرد في خلوته لا يعتصم بسلطان هيكل، ولا بمراسيم كهانة.

وتصنع هنا قدرة الفرد الواحد ما لم تصنعه جموع التبشير ولا سطوة الفتح والغلبة، فجملة من أسلموا في البلاد التي انتصرت فيها جيوش الدول الإسلامية هم الآن أربعون أو خمسون مليوناً بين الهلال الخصيب وشواطىء البحرين الأبيض والأحمر، فأما الذين أسلموا بالقدوة الفردية الصالحة فهم فوق المائتين من الملايين»[1].

إن الضمير المسلم فعل ذلك كله، وإن طبيعته سماوية وكل عمل يمسّه هذا الضمير يترك عليه بصماته الرّبانية، إنه ضمير لا ينحرف لأنه لا يعيش وراء المادة، ولا يحيا في أوكار المؤامرات من أجل المنافع الشخصية أو الأغراض الذّاتية، ويعجبني في موقف الضمير المسلم في المجتمع المسلم تلك الكلمات الرائعة لأديب العربية مصطفى الرافعي

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ٢٤.

حينما عرض لقصة (اليمامتان) في وحي القلم.

لقد بيّن أثر هذا الضمير المسلم في هذه الكلمات التي تحوّلت إلى شعر يأخذ بمجامع القلوب.

«وذلك أن جيش عمرو بن العاص أسر (أرمانوسة) بنت المقوقس ووصيفتها (مارية) في موكب زواج بنت المقوقس من قسطنطين بن هرقل ملك الروم، قالت الوصيفة لسيدتها في الأسر وكانت شاعرة:

جاءك أربعة آلاف جزّار أيتها الشاة المسكينة
ستذوق كل شعرة منك ألم الذبح قبل أن تذبحي
جاءك أربعة آلاف خاطف أيتها العذراء المسكينة
ستموتين أربعة آلاف ميتة قبل الموت

قوّني يا إلهي لأغمد في صدري سكّيناً يردّ عني الجزارين.

يا إلهي! قوّي هذه العذراء لتتزوج الموت قبل أن يتزوجها العربي.

قال الرافعي: وذهبت تتلو شعرها على أرمانوسة في صوت حزين يتوجع، فضحكت هذه وقالت: أنت واهمة يا مارية، أنسيت أن أبي قد أهدى نبيّهم (مارية القبطية) فكانت عنده في مملكة بعضها السماء، وبعضها القلب!.

لقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف له عن حقيقة هذا

الدين وحقيقة هذا النّبيّ، وأنها أنفذت إليه دسيساً يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل، وأن نبيّهم أطهر من السحابة في سمائها، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله لا من حدود أنفسهم وشهوتها، وإذا سلّوا السيف سلوه بقانون، وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون.

وقالت عن النساء: لأن تخاف المرأة على عفّتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النّبيّ، فإنهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل، ويكاد الضمير الإسلامي في الرجل منهم يكون حاملاً سلاحاً يضرب صاحبه إذا همّ بمخالفته»[1].

الضمير في رأي الإمام الغزالي:

والقارىء لكتاب: إحياء علوم الدين للإمام الغزالي يدهشه هذا التحليل الرّائع للضّمير الذي كان يطلق عليه كلمة النفس، وفي رأيي أن الضمير قوة خفية كما أن النفس قوة خفية، فكلاهما غيبي ومعناهما واحد، وإن اختلف اللفظان.

يقول الإمام الغزالي في كتاب: «شرح عجائب القلب» عن النفس في كتابه «الإحياء» ما نصه: «إنها لطيفة ربانية

---

(١) وحي القلم ١/١٩/٢٠.

عالمة مدركة، وهي نفس الإنسان وذاته وإنها توصف بأوصاف مختلفة بحسب اختلاف أحوالها فإذا سكنت تحت الأمر، وزايلها الاضطراب بسبب معارضة الشهوات سميت النفس المطمئنة، قال الله تعالى في مثلها: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[1].

وإذا لم يتم سكونها، ولكنها صارت مدافعة للنفس الشهوانية ومعترضة عليها سميت النفس اللوامة، لأنها تلوم صاحبها عند تقصيره في عبادة مولاه، قال الله تعالى:

﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾[2].

وإن تركت الاعتراض، وأذعنت، وأطاعت لمقتضي الشهوات، ودواعي الشيطان سميت النفس الأمّارة بالسوء. قال الله تعالى إخباراً عن يوسف عليه السلام وامرأة العزيز:

﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[3].

وفي ضوء هذا التقسم نرى أن الضمير له جانبان

---

(١) سورة الفجر: الآية ٢٧، ٢٨.
(٢) سورة القيامة: الآية ٢.
(٣) سورة يوسف: الآية ٥٣.

إيجابيان، وجانب سلبي أما الجانبان الإيجابيان فهما: النفس المطمئنة التي استقرّت، وهدأت حيث قضت على نزعات الشرّ فيها، فكل عمل ينبع منها أحست الراحة النفسية واللذة الروحية.

والجانب الثاني: هو جانب الصراع بين الاندفاع إلى الشهوة، والقضاء على الشهوة، وقد تتغلّب الشهوة، وهنا تشعر النفس بالندم والحسرة وتلوم ذاتها بذاتها ونفسها بنفسها، ولذلك سميت النفس اللّوّامة، والندم والحسرة أيضاً جانب إيجابي نمثله بيقظة الضمير حينما يستيقظ بعد إغفاء.

أما الجانب السلبي فهو ليس ضميراً وإنما هو شهوة يدعو إليها الشيطان فتستجيب لدعوته، نفس شأنها هكذا فهي أمّارة بالسوء، لأنه تنفر من الخير وتميل إلى الشر، وهذه القوة الخفية التي تحدّث عنها الغزالي هي القوة التي أشار إليها رسول الله ﷺ في حديثه مع وابصة فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن وابصة بن معبد قال: «رأيت رسول الله ﷺ وأنا أريد ألاّ أدع شيئاً من البرّ والإثم إلاّ سألت عنه، فقال لي: ادن يا وابصة فدنوت منه حتى مست ركبتي ركبته، فقال: يا وابصة أخبرك ما جئت تسأل عنه؟ قلت: يا رسول الله أخبرني، قال: جئت تسأل عن البرّ والإثم؟ قلت: نعم، فجمع أصابعه الثلاث ينكت بها في صدري ويقول: يا وابصة

استفت قلبك: البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في القلب، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[1].

صدقت يا رسول الله، فقد سبقت علماء الأخلاق والفلسفة، والنفس بهذا التحليل الرائع للنفس المطمئنة، والنفس اللّوّامة اللتين أشار إليهما الغزالي في الإحياء.

نعم، إن قوة الضمير، هي قوة الحق الذي يجب أن يسود، ويخضع له كل من في الوجود.

يقول الكاتب خالد محمد خالد معقباً على الحق الذي يتمثل في الضمير ضمير المفكّر بحكمة للفنان العبقريّ (بتهوفن) حيث يقول:

«ألا فلنفعل كلّ ما في وسعنا من أجل الخير...
ولنحب الحرية فوق كل شيء آخر...
ولنتجنّب خيانة الحقيقة...
ولو كان ثمن الخيانة تاجاً وعرشاً»[2].

---

(١) انظر: دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة ٣٠٩.
(٢) انظر: في البدء كان الكلمة ١١٣.

الفصل السابع

العقيدة والمبدأ

أثر العقيدة في التمسك بالمبدأ:

إن قوة المبدأ والتمسك بها تعتمد أول ما تعتمد على قوة العقيدة، ذلك لأن النفس البشريّة تموج بشتّى الغرائز في بحر لجي من الشهوات العارمة والرّغبات الصارخة، فإذا ما انتصر المسلم على هذه الغرائز في ميدان نفسه، ومجال طبيعته أصبح قوي الجانب، عزيز النفس، صلب الإرادة.

وقوة التمسك بالمبدأ لا نجد لها مثلاً في تاريخ الدعوات أو في تاريخ الإنسانية أعظم من المثل الذي قدمه لنا رسول الله ﷺ في مجالها.

فهذا رسول الله ﷺ يتألب عليه الشرك، ويقف في وجهه الطغيان، ويلقى من قومه ما يلقى عنتاً وإيذاءً، سخريةً واستهزاءً، كل ذلك ليتخلى عن مبدئه، ومع ذلك كان كالطود الراسخ.

وتعرض عليه الدنيا بزينتها وذهبها وجاهها، ومجدها

وسلطانها ومع ذلك كانت هذه العروض أمم قوة المبدأ كرماد اشتدّت به الريح في يوم عاصف.

إن قوة المبدأ مع نبي المبادىء كانت رائعة في هذه العبارة الخالدة: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

ولقد شرب أصحابه من هذه النبع من نبع العقيدة التي تدعو إلى الاستمساك بقوة المبدأ ما دام هذا المبدأ حقّاً وديناً. إنّ محمداً عليه السلام علّم أصحابه كيف يتمسكون بالمبادىء فتعلموا. إنّ المبادىء امتزجت بمشاعرهم ووجدانهم، بضمائرهم وإحساسهم، لا يبالون بقسوة، ولا يحفلون بطغيان.

ألم يهزء بلال بمشركي قريش وهم العتاة الصناديد، وهو العبد الأسود؟ لقد قالها كلمة رنّت في جوانب الدنيا أصداؤها، وضربات السياط تلهب ظهره: أحد، أحد، أحد.

ألم يقف أبو بكر وحده بعد أن ارتدت معظم القبائل ليعلن القتال في بسالة نفس، وشجاعة قلب، وقوة إيمان، وشعاره:

«والله لأقاتلنّ مَن فرّق بين الصّلاة والزّكاة، فإن الزكاة

حق المال، والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه».

وهذا الحسين أبو الشهداء كان يعلم تمام العلم أنّ المعركة بالنسبة له أمام يزيد وجنده خاسرة، ومع ذلك خرج للقائه، لأن قوة المبدأ تعني أن يقدّم صاحب المبدأ كل ما يملك في سبيله، لهذا نجد العقاد يصوّب رأي الحسين في الخروج لهذه المعركة غير المتكافئة من وحي قوة التمسك بالمبدأ الذي تدعو إليه عقيدته فيقول:

«إنه قد أصاب، أصاب إذا نظرنا إلى بواعثه النفسية التي تهيمن عليه، ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها.

وأصاب إذا نظرنا إلى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة، لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة، أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة.

فما هي البواعث النفسية التي قامت بنفس الحسين يوم دعي في المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد؟.

هي بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل، ولا تدعو مثله إلى صنيع غير ذلك الصنيع.

وخير لبني الإنسان ألف مرة أن يكون فيهم خُلُق كخُلُق الحسين الذي أغضب يزيد بن معاوية من أن يكون جميع بني

الإنسان على ذلك الخلق الذي يرضى به يزيد».

ويحلل العقاد خروج الحسين لمقابلة جيش يزيد تحليلاً رائعاً من وحي قوة المبدأ حينما يقول:

«هي ليست ضربة مغامر من مغامري السياسة، ولا صفقة مساوم من مساومي التجارة، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه، ولكنه وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأي من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره... فإن قبلته الدنيا قبلها، وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة بل لعل فواته بالموت أشهى إليه»[1].

وهكذا تعطي العقيدة للمبدأ قوة التمسك به، والتفاني في سبيله ما دام هذا المبدأ من صميم الإسلام، ومن وحي القرآن.

وأعتقد بعد هذه الجولة في تربية العقيدة للفرد المسلم في مجالات العلم، والعمل، والضمير، والتمسك بالمبدأ، أعتقد أن المجتمع الذي يضم هؤلاء الأفراد الذين تحلّوا بهذه التربية يستطيع أن يسير قدماً نحو الرقي والتقدم، نحو العطاء

---

(١) انظر النّصين في: «الحسين أبو الشهداء» ٨٢.

والخير، نحو التهذيب والإصلاح، نحو العزة والقوة، نحو الاستقلال والحرية، نحو السيطرة على الأرض واستخراج ما فيها لخير الإنسان.

وفي هذه الحالة يعطي المجتمع للفرد ما قدمه له، وفي النقطة التالية نحلل هذا العطاء، ونبيّن ما يقدمه المجتمع للفرد في ضوء العقيدة.

الفصل الثامن

أثر العقيدة في بناء المجتمع

أ ـ في المجتمع الصغير (الأسرة):

تحدثت فيما سبق عن أثر العقيدة في الفرد، ونتناول في هذه النقطة أثر العقيدة في المجتمع.

والمجتمع نوعان: مجتمع صغير تكوّنه الأسرة، ومجتمع كبير تكوّنه الأمة، وقد بيّنت فيما سبق أن شخصية الفرد عليها واجبات ترتكز على العقيدة وبهذه الواجبات يعتبر الفرد ذا شخصية ثابتة بالنسبة للمجتمع فلا تذوب شخصيته في المجتمع كما تضيع في النظام الشيوعي، ومع ذلك فإن هذا الفرد له حدود لا يتعدّاها، وغايات لا يتجاوزها بالنسبة للمجتمع الذي يعيش فيه، وأعني بذلك أن الفرد بالنسبة للمجتمع إيجابيّ يعطي وفق ما تمده به العقيدة في حدود معيّنة، لأنه إذا جاوز هذه الحدود يكون ضاراً لمجتمعه وهادماً لبنائه. على أننا لا ننسى أن غاية الفرد هي غاية المجتمع تحركها دوافع العقيدة، وقوانين الدين، وأوامر السماء.

«وبهذه الصورة ظهر بين الفرديّة والاجتماعية في الإسلام

توافق غريب بحيث يتيسر للفرد نماء قوته، وارتقاء شخصيته، ثم يصبح بقوته الرّاقية فيما فيه خير وسعادة للمجتمع»[1].

والأسرة في نظري هي الخليّة الأولى للمجتمع الكبير أو للأمة. وفي نظري أن القاعدة الاجتماعية التي تقول: إن الفرد أساس المجتمع نحتاج إلى نقاش، لأن الفرد وحده يعيش في دائرة ضيقة جدّاً بعيداً عن الاحتكاك الاجتماعي إلى أن يكمل تكوينه بالزواج وليس من عجب أن نجد الإسلام ينص على هذه العبارة المأثورة:

«من تزوّج فقد كمّل نصف دينه».

ومعنى هذا أن الفرد وحده نصف خليّة بالنسبة للمجتمع، لأن الخلية الكاملة لا تتكون إلاّ بالزواج.

وقد تمتدّ هذه الأسرة الصغيرة وتنمو فتشمل الأقرباء بدرجاتهم المختلفة في القرابة ومن هذه الأسرة ـ كما قلت ـ يتكوّن المجتمع الكبير.

وما أعظم التعبير القرآني المعجز في بنائه الخلاّب حينما يقول الله عزّ وجل:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ

---

(١) نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور ٥٦.

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾[1].

إنه يحمل في طيّاته الخطوط الأولى للتكوين الأسري، والنفس الواحدة تشتق منها نفس أخرى لتتعاون النفسان في البناء المشترك لتكوين خليّة اجتماعية صالحة لأن تكون منطلقاً عظيماً لبناء مجتمع عظيم.

والأسرة في الإسلام هي أصل الفضائل الخلقيّة، وهي منبع الرحمة والكرم، والعطف والحنان، والرقي والتقدُّم.

يقول العقاد: «وإذا تتبعنا سائر الفضائل والمناقب المحمودة بلغنا بها في أصل من أصولها على الأقل مصدراً من مصادر الحياة في الأسرة، فالغيرة، والعزّة، والوفاء ورعاية الحرمات، كلّها قريبة النسب من فضائل الأسرة الأولى.

ولا بقاء لما كسبه الإنسان من أخلاق المروءة والإيثار إذا هجر الأسرة، وفكّ روابطها ووشائجها.

فمن عادى الأسرة فهو عدوٌّ للنوع الإنساني في ماضيه ومستقبله... ولولا الأسرة ما اجتمعت الثروات التي تفرقت، شيئاً فشيئاً بين الوارثين وغير الوارثين من الأعقاب.

ولولا الأسرة لاستجاب لدعوة الهدم والتخريب كلّ من لا

---

(١) سورة النساء: الآية ١.

خلاق له من حثالات الخلق، ونفاياتهم في كل جماعة بشرية، فالأسرة هي التي تمسك اليوم ما بناه النوع الإنساني في ماضيه، وهي التي تؤول به غداً إلى أعقابه وذراريه حقبةً بعد حقبةٍ، وجيلاً بعد جيل.

«لا أمة حيث لا أسرة، بل لا آدمية حيث لا أسرة»[1].

والواقع أن العقاد وضع النقاط على الحروف في مكانة الأسرة في مجال علم الاجتماع، وأنها ضرورة إنسانية لحفظ إنسانية الإنسان، ولو سلّطنا الضوء على أثر العقيدة في تكوين الأسرة، وصيانة بنائها واستمرار آدائها لرسالتها لتبيّن لنا ما يأتي:

١ ـ الأسرة نعمة كبرى في مجالها تنمو الفضيلة، وفي مجالها تسود العِفّة، وفي مجالها تسعد النفس، وتقرّ العين.

ولقد هزّني التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[2] لم يقل: خلق لكم أزواجاً، ولكنه قال: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ماذا يعني هذا؟ لا شك أنه يعني أن الزواج تمازج روح بروح، ونفس بنفس، وقلب بقلب،

---

(١) انظر: حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٣٨.
(٢) سورة النّحل: الآية ٧٢.

وذلك ليسدّ الطريق على الانفصام النفسي بين الزوج والزوجة، فإن هذا الانفصام يؤدي إلى كوارث متعدّدة تحطّم البناء، وتقوّض المجتمع.

٢ - وفي صراحة ووضوح يؤكد القرآن الكريم معنى الحب والتمازج النّفسي بين الزوجين فيقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[1].

٣ - وتعلّمنا عقيدة الإسلام أن ندعو الله أن يجعل لنا من أزواجنا وذرّياتنا ما يسعد نفوسنا ويريح بالنا، ويفرح قلوبنا ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾[2].

على أن العقيدة لم تغفل الجانب التربوي للأسرة، فهناك أسس لا بد منها لبناء الأسرة:

أسس بناء الأسرة في الإسلام:

١ - الحث على الزواج: فالعقيدة ضدّ العزوبة لأن

---

(١) سورة الرّوم: الآية ٢١. (٢) سورة الفرقان: الآية ٧٤.

العزوبة تحلل من المسؤولية وهروب من الواجب، وحرب على المجتمع: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج».

فهذا نداء نبيّ العقيدة، وهو نداء ملزم لكل شاب ما دام قادراً على الزواج وتحمّل مسؤوليته.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ من النصح والإرشاد، بل تجاوزه إلى التهديد والزجر حيث يقول عليه السلام: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني».

٢ ـ اختيار الزوجة: لقد حصر الإسلام اختيار الزوجة في مجال واحد وهو مجال الدين، والدين وحده.

يتضح لنا ذلك من قول نبيّ العقيدة عليه السلام: «تنكح المرأة لأربع لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك».

والعقيدة سوّت بين الزوج والزوجة في هذا الاختيار. وهذا المعنى حدّدَهُ نبيّ العقيدة عليه السّلام حينما خاطب أولياء الأمور بقوله: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه إلّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

وبخطّ الدّين الذي رسمته العقيدة ليصون البناء الأسري من الانهيار تتخطّى الأسرة مشكلاتها لأن العقيدة تنادي

بالتسامح وتدعو إلى المودّة والحب. وفي ظلال هذه المعاني تتماسك الأسر، وتذوب المشكلات.

أذكر أن رجلاً جاء لعمر رضي الله عنه، وقال له: «إن حبّه لزوجته قد خبا، وأنه يريد أن يستبدل بها، فقال: ويحك! أوكل البيت تبني على الحب؟ أين تقوى الله وعهده، وأين حياؤك منه؟ وقد أفضى بعضكم إلى بعض، وأخذ الله تعالى منكم ميثاقاً غليظاً».

وسأل رجل الحسن البصريّ في خاطبين تقدما لابنته: أيهما يزوّج؟.

فقال له أرضاهما ديناً، فإنه إن أحبّها أكرمها وإن كرهها لم يظلمها.

٣ ـ تربية الأولاد على هذه العقيدة: الإسلام اهتمّ بالأولاد في أطوار حياتهم المختلفة، اهتمّ بهم في بطون أمهاتهم حينما كانوا أجنّة، فأباح للأمهات الفطر في رمضان إذا خشين على أجنتهن الهلاك.

وأرشدنا إلى حسن استقبالهم حينما يفتحون أعينهم على هذا الوجود بشكر الله وذكره.

واهتمّ به وليداً حيث شرع له ما شرع من القوانين التي تحميه وترعاه حتى يبلغ سن الرشد.

والفقه الإسلامي زاخر بهذه القوانين في الرضاعة، في الفطام، في الحضانة في الفقه، في التربية.

والإسلام يطالب الآباء والأمهات أن تكون القاعدة التي تقوم عليها التربية هي الدين فيقول عليه السلام:

«كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللّذان يهوّدانه أو ينصّرانه أو يُمجّسانه».

ولا أدلّ على ذلك من أنه عليه السلام سمع أُمّاً تنادي وليدها، وترغّبه ليقبل عليها وتقول له: تعالى أعطك، وتشير إلى شيء، ولم ير النبي عليه السلام معها شيئاً فقال لها: «ما أردت أن تعطيه؟» قالت ثمرة معي، فقال ﷺ: «أما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة».

يا الله: إنها العقيدة التي تدعو إلى تربية الناشىء على الصدق، وإن الصدق كلمة تحتها كل الكلم، لأن فيها كل التقدم بل فيها سر الحياة الكريمة، بل فيها روح المجتمع العظيم.

والأسرة أخذ وعطاء، فكما يأخذ هذا الوليد من الرّعاية والتربية والحنان والعطف عليه حينما يشبّ عن الطوق، وتقل قدرة والديه على العطاء أن يبرّ بوالديه، ويحسن إليهما حتى يردّ الدين، ويكفي أن الله سبحانه جعل البر بالوالديّن مقروناً

بطاعته، فقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ﴾[1].

وهناك حقوق شرعية للزوج على زوجته، وأخرى شرعية للزوجة على زوجها لا نحب أن نتطرق إليها في هذا البحث الضيق ويكفينا فقط أن نضع الأسس التي يتكوّن منها البناء، أما ما وراء ذلك من بحوث تفصيلية، فليس له في هذا البحث مجال، لأنه إشارة لخطوط عريضة في مجال دراسة الأسرة، وفي الإشارة ما يغني عن العبارة.

ب ـ أثر العقيدة في المجتمع الكبير:

لا نستطيع أن نستوعب أثر العقيدة في المجتمع الكبير أو في الأمة، لأن هذا الأثر يتناول كل جوانب الإسلام في بناء الأمم والجماعات، وحسبنا فقط في هذا المقام أن نشير إلى أهم الجوانب في بناء الأمة في صورة موجزة، ومن أهم الجوانب التي تؤثر فيها العقيدة بالنسبة لبناء الأمة ما يأتي:

أ ـ جانب الأخوة:

لئن كانت الأسرة تنتمي إلى أب واحد تعتز به، وتفتخر

---

(١) لخص بحث الأسرة من كتاب من الدراسات الإسلامية للباحث من ص ٥٣/٥٩.

بالانتساب إليه، وتضحي في سبيل شرف الأسرة بكل ما تملك، فإن رباط الأخوّة بين المؤمنين يحوّلهم إلى أن ينتسبوا إلى أب واحد، يعتزون بشرف الانتساب إليه، ويقدمون في سبيل إعزازه دماءهم وأموالهم وأبناءهم، إن هذا الأب هو الإسلام، ومن ثم لا نعجب من الشاعر العربي المسلم حينما قال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقد رسمت العقيدة الإسلامية معالم هذه الأخوة نذكر بعضها في إيجاز.

معالم الأخوة:

من معالم هذه الأخوة:

١ ـ الإحساس بحاجة المؤمنين ورعايتهم:

والإحساس بحاجة المؤمنين يتطلّب الرعاية والعطف والشفقة يصور ذلك رسول الله ﷺ فيقول فيما رواه مسلم:

«إن الله عزّ وجل يقول يوم القيامة: يا بن آدم مرضت فلم تعدني، قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده.

يا بن آدم استطعمتك فلم تطعمني قال: يا رب: كيف

أطعمك، وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي.

٢ ـ الاعتصام بحبل الله:

يصور ذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1].

٣ ـ التعامل بالخلق:

والتعامل بالخلق يؤكد معنى الأخوة، فلا تسمح العقيدة الإسلامية بالنيل من كرامة المؤمن، لأن المؤمنين جميعاً جسم واحد ولا يصح لمؤمن عاقل أن يصوّب السهم إلى نفسه، أو يحطم بناءه بيده.

يصور ذلك القرآن فيقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ﴾[1].

٤ ـ صيانة عرض المؤمن:

وعرض المؤمنين في ضوء العقيدة الإسلامية مصان لا يمسّ بسوء، يصوّر ذلك القرآن الكريم فيقول:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[2].

٥ ـ التسامح:

يصور ذلك ما روته أم سلمة رضي الله عنها، قالت:

جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ في مواريث بينهما قد درست ليس عندهما بيّنة، فقال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ، وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم أن

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٢.

يكون ألحن بحجّته من بعض، وإنما أقضي بينكم بما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار. . .».

فبكى الرجلان. وقال كل منهما: حقي لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم أسهما، ثم ليحلّل كل منكما صاحبه».

٦ ـ الإيثار:

ومن معالم هذه الأخوة الإيثار، والإيثار حرمان النفس وإعطاء الغير.

يصوّر ذلك القرآن الكريم فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1].

٧ ـ الحب في الله:

ومن معالم هذه الأخوة: الحبّ في الله، يصوّر ذلك النبي عليه السلام فيقول: «إن من عباد الله ناساً، ما هم أنبياء

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى».

قالوا يا رسول الله: فخبّرنا من هم؟ قال: «هم قوم تحابّوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، ولا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس»، وقرأ هذه الآية:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

هذه هي مجمل معالم الأخوة في الإسلام وكل معلم من هذه المعالم يحتاج إلى بسط كبير، وإلى كلام كثير، وإلى شرح وتحليل، ولكننا نكتفي بهذا القدر اليسير في هذا البحث الموجز.

ب ـ جانب المساواة:

ومن جوانب المجتمع الكبير في ضوء العقيدة تحقيق المساواة بين أفراد هذا المجتمع ذلك لأن الإسلام يسوّي بين الناس في الحقوق والواجبات والجنس واللون فليست هناك طبقية، وليست هناك مقاييس تفضل فرداً على فرد إلاّ مقياساً

---

(١) سورة يونس: الآية ٦٢.

واحداً فقط وهو مقياس التقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1].

ويؤكد رسول الله ﷺ مبدأ المساواة الذي جاء به القرآن الكريم في قوله عليه السلام: «الناس سواسية كأسنان المشط الواحد، لا فضل لعربيّ على أعجميّ إلّا بالتقوى».

ذلك الجانب جانب مقدّس في عقيدة الإسلام. فما دام هناك إيمان بالإله الواحد خالق البشر فهم متساوون في البدء حيث ولدوا عراة، ومتساوون في النهاية حيث يهال عليهم تراب القبور، فلماذا يختلف الناس إذن فيما بين ذلك أي بين البدء والنهاية؟ منطق لا يقبله العقل، ولا تقرّه العقيدة.

وإذا كان الناس مختلفين في الجنس واللون والرزق والمواهب فإن ربهم واحد، وهو رب العالمين بريء من المحاباة والتحامل، لا ينحاز لجنس ولا لأرض ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾[1].

ولا يصانع سلطة أو طبقة: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[2].

وكان على من يزاول الاختيار الحر، ويمارس الفكر أن يصير منطقيّاً مع هذا الأساس الجديد، فيجاهد أهواء النفس، وإيحاء الجَمْع، ورغبة المصلحة، ورهبة السلطة ليعلي ميزان الرشد والحق، وأي فسق أفسق من الانتكاس والارتكاس إلى عصبيات الدم والأرض ومغاليات المال والتجارة لتخطط علاقة الإنسان بالإنسان، وتحدد للإنسان فلسفة في الكون والحياة»[3].

وهل هناك أبلغ في المساواة بين البشر في الإسلام من القضاء على نظام الرق الذي كان سائداً قبل الإسلام في أمم لها حضارات ولها ثقافات.

---

(١) سورة الروم: الآية ٢٢.
(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٧.
(٣) انظر: دولة الفكرة ٢٤، ٢٥.

إن الإسلام ألغى منابع الرق جميعاً كالخطف والوفاء بالدين والبيع إلخ وأبقى منبعاً واحداً وهو منبع الحرب أي لا رقّ في الإسلام إلّا بسبب الحرب، ومنابع الرقّ قبل الإسلام لم يكن لها إلّا مصرف واحد هو إرادة السّيد حينما يحرّر عبده، أما في الإسلام فقد كان الأمر على العكس مصارف الرقّ متعدّدة وليس له إلّا منبع واحد وهو أسير الحرب.

وهؤلاء الأسرى الأرقاء فتحت لهم أبواب من الحرية تتيح لهم أن يتساوَوْا مع الأحرار، وذلك بالطرق الآتية:

١ ـ فتح باب العمل أمام الأسير ليعمل، وحصيلة عمله يقدمها لسيده ليفدي بها نفسه: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾[1].

٢ ـ الجارية التي تلد من سيدها تعتبر أم ولد من حقها أن تسعد بالحرية.

٣ ـ أخطاء المسلمين التي تجب فيها الكفارة على رأسها تحرير رقبة مؤمن، وإلى جانب هذه الأبواب من الحرية هناك وصايا بليغة بمعاملة الأرقاء معاملة طيبة...

---

(١) سورة النور: الآية ٣٣.

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾[1].

ومن الوصايا النبوية:

١ ـ «الصلاة وما ملكت أيمانكم».

٢ ـ «لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد».

٣ ـ «لا يقل أحدكم عبدي أو أمتي، وليقل فتاي وغلامي».

٤ ـ «من لطم مملوكه فكفارته عتقه».

«من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن أخصى عبده أخصيناه».

أين هذا من الحضارات الإنسانية التي سبقت الإسلام، ففي الحضارة اليونانية «الفيلسوف إفلاطون قد اعتبر نظام الاسترقاق نظاماً ملازماً للجمهورية الفاضلة.... وحرم الرقيق حقوق المواطنة والمساواة....

---

(١) سورة النساء: الآية ٣٦.

والفيلسوف أرسطو جعل الرقّ نظاماً من الأنظمة الملازمة لطبائع الخليقة البشرية فلا يزال في العالم أناس مخلوقون للسياسة وأناس مخلوقون للطاعة والخضوع»[1]. وحتى المسيحية، وهي دين المحبة كما يقولون: «فقد كتب القديس بولس بشأن الرقيق رسالة إلى أهل «أفسس» يأمر فيها العبيد بالإخلاص في إطاعة السادة كما يخلصون في إطاعة السيد المسيح»[2].

من هذه النصوص نستطيع أن نقول: إنه لا توجد حضارة على امتداد التاريخ ولا عقيدة على مر العصور استطاعت أن تنهض بالإنسان ليرتفع قدره، ويحس بمكانته ويتساوى مع أخيه الإنسان مهما اختلف الجنس وتعدّد اللون، وتفاوتت الأرزاق كعقيدة الإسلام وحضارة الإسلام.

مَنْ مِنّا ينسى هذه الواقعة التاريخية، واقعة الشريف الذي لطم عبداً، لأنه داس على ذيله بدون قصد أثناء الطواف، فقد أصر عمر على القصاص، ويلطم العبد ذلك الشريف كما لطمه...

بل مَنْ مِنّا ينسى قصة ذلك القبطيّ الذي ضربه ابن

---

(١) انظر: الفلسفة القرآنية للعقاد ٨٨، ٨٩.

(٢) المرجع السابق ٨٩.

عمرو بن العاص بدون وجه حق وأمر عمر أن يضرب القبطي ابن عمرو، ويلتفت إلى عمرو، ويقول له كلمة هزت الدنيا بأسرها، وما زال لها دوّيها في دنيا الحق، وعالم العدل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها قال: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً.

هل هناك مساواة تقترب من هذه المساواة، إن إفتتنان المثقفين والفلاسفة بحضارة اليونان وجمهورية أفلاطـون ما زالت موضع دراسة إلى يومنا هذا، ومع هذا فقد ضاعت في هذه الجمهورية الفاضلة كرامة الإنسان الفاضل.

ج ـ جانب التسامح الديني:

لقد كفل الإسلام حرية العقيدة، ووضع أسس التسامح بين العقائد.

إن العقيدة الإسلامية أثرها كبير في إتاحة الحرية لكل دين أن يعبر عن نفسه من غير أن تتدخل السلطة الإسلامية في هذا التعبير، فلأهل الكتـاب أن يمارسـوا طقوسهم في كنائسهم ومعابدهم، بل إن السلطة الإسلامية نفسها مسؤولة عن حماية الكنائس ورعايتها.

وقـد كانت العقيـدة الإسلاميـة أيضاً إلى جـانب ذلـك إيجابية إلى آخر حدود الإيجابية، فقد أهابت بالمسلمين أن

يبروا بأهل الكتاب، وأن يعدلوا بينهم.

وكلمة البر تعني : الرحمة والحنان، والعطف والشفقة، تعني إحقاق الحق، وصيانة النفس، وحفظ العرض، ورعاية المال ولا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[1].

وأهل الذمة مصطلح إسلامي يعني أن بين المسلمين وأهل الكتاب الذين يعيشون في دولة الإسلام وعلى أرض المسلمين عهداً وميثاقاً وذمة، وعلى أهل العقيدة الإسلامية أن يفوا بهذا العهد، وهذا الالتزام.

ويلخص أبو الأعلى المودودي هذه المعاملة التي تحث عليها عقيدة الإسلام بالنص الآتي:

«مثل هؤلاء من غير المسلمين يضمن الإسلام المحافظة على ديانتهم وثقافتهم وأموالهم وأعراضهم، ويعطيهم في قوانين البلاد الداخلية مثل ما يعطي المسلمين سواء بسواء. ويفتح لهم أبواب جميع الوظائف في الدولة إلّا المناصب

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ٨.

الرئيسية ويجعل نصيبهم من الحرية المدنية مثل نصيب المسلمين.

ولا يجيز أن يعاملوا في الشؤون الاقتصادية بما لا يعامل المسلمون أنفسهم وفوق ذلك يعفيهم من تبعة الدفاع عن الدولة، ويلقيها كلها على المسلمين وحدهم»[1].

وحرية التعبير متاحة لأهل الكتاب كما هي متاحة للمسلمين، فلا مهاجمة لآرائهم بقوة السيف، أو سلاطة اللسان، فإن كانت مواقف حوار أو مجادلة، فهو الحوار الذي يقدّم الدليل، وهو الجدال الذي يبنى على العفة في اللسان، والألفاظ المهذبة:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[2].

أما الجزية فهي ضريبة تؤدى للدولة الإسلامية نظير الخدمات التي تؤديها الدولة لأهل الذمة والدفاع عنهم.

وليست الجزية وسيلة إذلال أو قهر، أو سلطة واستبداد،

(١) تدوين الدستور ٥٨.
(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٦.

ولكنها ثمرة اتفاق بين المسلمين الفاتحين، وبين أهل البلاد المقيمين.

على أن هذه الجزية مقصورة فقط على أهل البلاد الذين فتحت بلادهم عنوة يقول المودودي:

«وأما الجزية فما أمر الإسلام بفرضها على غير المسلمين إلّا في ما إذا فتحت بلادهم عنوة أو في ما إذا كانوا صاروا رعايا للدولة الإسلامية بشرط أداء الجزية إليها عن طريق اتفاقية واضحة بينها وبينهم»[1].

وتاريخنا الإسلامي حافل بالأمثلة التطبيقية الرائعة في تسجيل هذا التسامح على صفحاته الخالدة.

ومن الأمثلة على ذلك إعادة أبي عبيدة الجزية لأهل الشام حينما علم أنه لا يستطيع حمايتهم لاحتشاد جيش الروم، ولتوقع انشغاله بهذه المعركة مما يجعله لا يستطيع حماية أهل الشام، والجزية ضريبة الدفاع أو الحماية عنهم، وحيث انتفى الدفاع انتفت الجزية قال لهم: «إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنّا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا

---

(١) انظر: الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة ٢٦٩.

عليكم ما أخذناه منكم ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم»[1].

أين هذا التسامح، وأين هذه العدالة عند غير المسلمين؟.

لم يكن عندهم إلاّ التعصب المقيت لمن خالفهم في دينهم فهؤلاء الصليبيون في محاربتهم للمسلمين كانوا يحملون معهم روح الحقد والكراهية، روح التعذيب والتنكيل، وقد بدا تعصبهم واضحاً «في مذبحة بيت المقدس التي قتلوا فيها ما يزيد عن السبعين ألفاً ممن التجأ إليه من ضعاف المسلمين والمسالمين. . .

وبعكس ذلك كان موقف صلاح الدين الأيوبي عندما استرجع بيت المقدس، فقد منع الاعتداء على كل صليبيّ بعد أن استسلمت الحامية الصليبية بالقدس ومنحها الأمان، وخرج جميع الصليبين من بيت المقدس محروسين بالجند الإسلامية فوصلوا آمنين إلى مدينة صور. . .

وكان الصليبيون يعجبون من هذا التسامح الصادر عن أعدائهم المسلمين نحوهم ومن هذه الرحمة التي يبديها المسلمون نحو الصليبيين الذي حسّهم الجوع أو أضنتهم

---

(١) انظر: قبسات من الرسول ٢٨، ٢٩.

الجراح، وأقعدهم العجز، وكيف أن المسلمين لم يستغلوا العجز لإكراههم على الإسلام، بل لقد كانت هذه المعاملة الرحيمة سبباً في التجاء كثير من الصليبيين إلى الإسلام»[1].

حين فعل ذلك صلاح الدين كان يقوم بعمل رائع تدفعه إليه العقيدة، وتحثه على هذا التسامح روح الإسلام.

ولو فعل بهم ما فعلوا في المسلمين لما أدانه أحد، لأن شرائع الأرض والسماء لا تجد في المعاملة بالمثل أي حرج أو عناء، وإن نسينا فلا ننسى أبداً هذا الموقف التسامحي الرائع فلما توجه عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس سنة ١٥ هـ لعقد صلحها، وأدركته الصلاة وهو في كنيسة القيامة الرائعة أبى أن يصلي فيها مخافة أن يدعي المسلمون الكنيسة بعده، والنّاظر لهذه الأمثلة الرائعة في معاملة أهل الذمة والتسامح مع أهل الكتاب يرى أن السر يكمن في العقيدة الإسلامية التي يحملها المسلم بين جنبيه، العقيدة الإسلامية التي ترفع شعار محمد عليه السلام يقول: «من ظلم ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة».

وما لي أذهب بعيداً ورسول الله ﷺ أصهر إلى النصارى فتزوج من قبطية اسمها مارية كانت أم المؤمنين، وأم ولده

---

(١) انظر: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ١١٠، ١١١.

إبراهيم كما تزوج من صفيّة وهي يهودية، ولم تفته فرصة دون أن يوصي بأهل الكتاب خيراً.

ويعترف السير (توماس آرنولد) في كتابه: «انتشار الإسلام» بأن الكنيسة المسيحية قويت وتقدمت في رعاية المسلمين وحكمهم وأن جميع المذاهب المسيحية كانت تتمتع بالرعاية والتسامح من الحكام المسلمين على حد سواء، بل هؤلاء الحكام هم الذين يمنعون اضطهاد بعض المسيحيين لبعض، ويكفلون الحرية الدينية للجميع.

وقد التقت المسيحية بالإسلام في كثير من الأوطان الإسلامية عند الهجوم الإستعماري على الأوطان الإسلامية في عصرنا الحاضر، وقد ظهرت رايات المتظاهرين في الثورات الوطنية وقد نسجت خيوطها أهلة وصلباناً، وهال مدام جهان دي فراي أن شهدت قسيسين أقباطاً يعظون في المساجد، وعلماء من شيوخ المسلمين يعظون في الكنائس طلبة من السوريين، والموارنة والمسلمين، وسيدات مصريات وتركيات جميعاً على وئام وثيق واتحاد مكين في سبيل القضية الوطنية، وقالت: إنها قد أصبحت تشهد من ذلك العجائب والغرائب في هذه الديار.

«ونحن نرى من الجانب المسيحيّ الأدباء المسيحيين العرب يمازجون بين عواطف الإسلام والعروبة، ويهذّبون

بأدبهم المشاعر، ويعملون على تقريب الوجهات كما يعمل عليها المسلمون، ولهم الآيات البينات في التغنّي بمحاسن الحضارة الإسلامية ومنهم من فنى في حب محمد رسول الإسلام مثل «مارون عبود» ولبيب الرياشي الذي وصف فضائل محمد بما لم ينهض بمثله كثير من المسلمين، وأمثال نجيب بضّار وغيرهم، وكلهم أشاد في شعره، ونثره بمحمد، واستعذب لغة القرآن»[1].

ألا يعني هذا أن الفتن الطائفية لا تستيقظ بين المسلمين وغيرهم إلاّ في فترات تضعف فيهما عقائد المسلمين، وتنحرف عن الصواب عقائد المسيحيين، ولكن حينما تستيقظ العقائد، تذوب هذه الفتن، ويتعايش أهل الكتاب مع المسلمين في ضوء البر الذي أشار إليه القرآن الكريم:

﴿ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾.

د ـ حقوق الفرد على المجتمع:

وفي ضوء العقيدة فإن الفرد جزء من المجتمع، وكما أعطى الفرد للمجتمع ما تحدثنا عنه سابقاً عند بحث: أثر العقيدة في الفرد، فعلى المجتمع أيضاً أن يعطي الفرد حقوقاً، ليشعر بمكانته في مجتمعه، وقيمته في أمته.

---

(١) انظر الاتجاهات الحديثة في الإسلام ٤١، ٤٢.

ومن أهم هذه الحقوق:

١ ـ الحرية في الرأي:

ونعني بالحرية في الرأي، حرية الكلمة، حرية القلم، وفوق هذا وذاك حرية العقل.

ولا نعني بإعطاء الحرية أن تترك بلا قيود أو سدود، لأنها لو تركت لتحوّلت إلى مارد جبّار يخرب ولا يعمّر، يفسد ولا يصلح. «إن الأمل في الفكر الحر إذا جرى مجراه الطبيعي المستقيم هو أن يكون حواراً بين لا ونعم، فلا الرفض المطلق الأعمى يعد فكراً، ولا القبول المطلق الأعمى يعد فكراً، ففي الأول عناد الأطفال، وفي الثاني طاعة العبيد.

الله وحده هو الذي وسع كرسيه السموات والأرض فاتسع علمه للحق كله يعلمه علم اليقين علماً ليس فيه إمّا... وإمّا. أما علمنا نحن البشر... كل منّا يعرض حلاً ممكناً على أنه هو الرأي الذي يراه، ومن الأخذ والرد خلال عملية الحوار نقبل من الآراء المعروضة ما نقبله، ونرفض ما نرفض... تلك هي طبيعة الفكر الحر أن يكون حواراً متعادل الأطراف لا يأمر فيه أحد أحداً، ولا يطيع فيه أحد أحداً إلاّ بالحق ليس فيه رجحان للموتى على الأحياء، ولا تفضيل لطائفة من الأحياء على طائفة.

أمّا إذا انقلب الوضع والعكس فأصبح ما نسميه فكراً هو أن يأمر آمر ليصدع بأمره مطيع واختصر الطريق الذي كان بين المتحاورين جيئةً وذهاباً فبات طريقاً في اتجاه واحد، أي أن يكون جيئة ولا ذهاب، أن يكون هبوطاً ولا صعود، أن يكون قولاً من هناك وسمعاً وطاعة من هنا فعندئذ قل على حرية الفكر السلام»[1].

والناظر في الفقه الإسلامي يجده ثمرة من ثمار حرية الرأي في الإسلام، إنه مليء بلفتات عجيبة تؤكد هذه الحرّيّة وتعلي من شأنها، فالإمام ابن تيميّة مثلاً على الرغم من اعترافه بفضل الأئمة الذين اعترفت بهم الجماعة الإسلامية، وأعطتهم قدرهم من الإجلال والاحترام فإنه يقرر:

«ولا يسوغ لأحد أن يلتزم مذهباً معيّناً قد اختاره إذا تبّين له أن الحق في أمر هو في غيره، فإنه يجب أن يكون رائد طالب الشريعة هو الحق لذات الحق، ولا يسوغ له أن يتعصّب لرجل مهما تكن إمامته، ولا ينظر إلى الشريعة إلاّ من وراء نظره، وبمنظار لا يعدوه، فإن كل واحد يؤخذ من قوله ويترك إلاّ صاحب الروضة الشريفة محمد ﷺ»[2].

---

(١) انظر: تحليل حرية الرأي في كتاب: تجديد الفكر العربي ١٣٠.
(٢) ابن تيمية لأبي زهرة ٣٥٨، ٣٥٩.

٢ ـ حق حرمة النفس أو حق الحياة لها:

لقد كرّم الله تعالى الإنسان: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1] فصان نفسه وحماها من أن تمتد إليه يد فتقضي على حياتها، لأن لكل نفس حقاً في الحياة، وفي ضوء هذا الحق يصون المجتمع حياة النفس الإنسانية ومسؤوليّته عن حمايتها مسؤولية كبيرة: وإن الذي يعتدي على حرمة النفس فيسريق دمها، ويزهق حياتها فكأنما أراق دماء الإنسانية جميعاً، وأزهق أرواح الناس جميعاً فوزن حياة الإنسان الفرد هو وزن حياة الأمة بأسرها، وأعتقد أنه ليس هناك تكريم للنفس الإنسانية وصل إلى هذا التكريم الذي وضعه القرآن الكريم لحماية حياة الإنسان حيث يقول: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[2] ويقول القرطبي في معنى هذه الآية: «المعنى من قتل نفساً واحدة وانتهك حرمتها فهو مثل من قتل الناس جميعاً، ومن ترك قتل نفس واحدة وصان حرمتها واستحياها خوفاً من الله فهو

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣٢.

كمن أحيا الناس جميعاً»[1].

٣ ـ حفظ أعراض النساء:

يقول أبو الأعلى المودودي: «إن عرض المرأة محرم في كل الأحوال لا يجوز المساس به، ومن ذلك إذا واجه الجيش الإسلامي مثلاً جماعات النساء أثناء المعركة فلا يجوز حينئذ لأيّ جنديّ مسلم أن يمس أعراضهن، كما أن القرآن يجعل البغاء محرّماً بتاتاً مع جميع النساء بغض النظر عن كونهن مسلمات أو غير مسلمات من قومنا أو من قوم عدّونا من الدولة الصديقة أو المحاربة»[2] وحتى الروح الحيوانية دعتنا العقيدة أن نتعامل معها على أسس من الرحمة والشفقة.

فقد رأى رسول الله ﷺ قرية نمل قد أحرقت، فقال: «من أحرق هذه؟»، فقال من معه: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذّب بالنّار إلاّ ربّ النّار».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فدخل رجل فأخرج بيض حمرة ـ وهي ضرب من الطيور أحمر اللون ـ فجاءت الحمرة ترف على رأس الرسول ﷺ فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «أيكم فجع هذه؟» فقال رجل: أنا يا

---

(١) تفسير القرطبي: ٦/١٤٦.
(٢) انظر: مجلة المسلم المعاصر اكتوبر ١٩٧٤.

رسول الله أخذت بيضها، وفي رواية أخذت فرخها فقال ﷺ: «ردّه، ردّه رحمة لها».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث، يأكل الثرى من العطش فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفّه، ثم أمسكه بفمه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له...»[1].

٤ ـ التكافل الإجتماعي:

ومن حق الأفراد الفقراء أن يرعاهم المجتمع، سواء كان هذا الفقر ناشئاً عن علة مرضية تحول بين الأفراد وبين الكسب، أو لظروف اجتماعية قاسية، حلت بهم، فعلى المجتمع أن يتولّى مسؤولية هذا التكافل وذلك عن طريقين: الزكاة ـ الصدقة، أمّا الزّكاة فهي حق يتقاضاه المجتمع أو الدولة المسلمة بحكم الشريعة، وبقوة السلطان.

«والزّكاة شريعة إنسانية خالدة تضمنتها أوامر الأنبياء قبل الإسلام، فلا دين بغير هذا الواجب الاجتماعي العريق يقول عن إسماعيل: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ وَكَانَ يَأْمُرُ

(١) انظر: الجوانب التوجيهية ٣٥، ٣٦.

أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾[1].

ويقول عن إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ الى قوله تعالى: ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2].

وأما الصدقة، فهي من باب طريق الشعور الشخصي بالواجب والإحساس النفسي بالرحمة، والتضامن الإنساني الوثيق»[3].

هـ ـ الجهاد في سبيل الله:

وتوجب العقيدة على الأمة أن يتربّى أبناؤها على أن يكونوا أقوياء لأن الدين الإسلامي دين القوة، فمن أجل المحافظة على المبادىء والقيم والأخلاق والتشريع وإصلاح الإنسانية فلا بد من وجود قوّة تحمي هذه المكاسب وتصون الإسلام من طغيان المستبدين والحاقدين. إن المسلم صاحب العقيدة يعرف أن الحياة أيام قصيرة وما أحراه في مجالها أن يكون العزّ رائده، والشرف غايته، والجهاد في سبيل الله تاجه المرّصع بنبضات القلوب، وحرارة المشاعر،

---

(١) سورة مريم: الآية ٥٤، ٥٥.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٢، ٧٣.

(٣) انظر: العدالة الاجتماعية في الإسلام ٨٢.

ولهيب العواطف.

ولقد صوّر رسول الله ﷺ شرف الجهاد والاستشهاد بقوله عليه السلام: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مُغْبَرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

ومن أجل أن تبقى للإسلام كلمته العليا أمرنا الله تعالى أن نعد أنفسنا إعداداً كاملاً لنرهب عدوّ الله وعدوّنا.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ (١).

والقوة تختلف من عصر الى عصر، ومن زمن الى زمن، فليست قوة بعينها، ولكنها القوة التي تقتضيها طبيعة العصر، وتطوّر العلم والصناعات.

وتنكير كلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ رائع بليغ، لأن التنكير يفيد استغراق الجنس في اللغة العربيّة.

وكلمة ﴿مَّا ٱسْتَطَعْتُم﴾ تفيد أيضاً بذل كل ما في طاقة المجتمع المسلم نحو إعداد هذه القوة بالوسائل المختلفة

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

التي تتيح لهذه القوة أن تكون عوناً على انتشار الإسلام، وحراسته من قوة الطغيان. وجانب القوة المادية يقوم على قوة العقيدة وتكاملها، فالمسلم حياته، رخيصة من أجل دينه، والشهادة هي التاج الذي يبحث عنه.

يحدثنا التاريخ أنّ النبي عليه السلام في بدر قال: «قوموا إلى جنّة عرضها السموات والأرض أعدّت للمتقين»، فقال عمير بن الحمام: بخ بخ فقال رسول الله ﷺ: «لم تبخبخ؟» فقال: رجاء أن أكون من أهلها، فأخذ ثمرات فجعل يلوكهن، ثم قال: والله إن بقيت حتى آكل ثمراتي هذه، إنها لحياة طويلة، فنبذهن، وهو يقول:

ركضنا إلى الله بغير زاد ... إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد ... وكل زاد عرضة النّفاد
غير التّقى والبر والرشاد

وما زال يقاتل حتى قتل.

وها هو ذا خالد بن الوليد سيف الله المسلول، والبطل المقدم الذي شهد المواقع التي تشيب لها الولدان. كانت أمنيته الغالية أن يظفر بالشهادة ولكنه لم يقدر له ذلك رغم تعرضه للموت مئات المرات، وهنا يملأ القلب حزنه فيقول في أسف مؤلم: «لقد طلبت القتل في مظانّه، فلم يقدّر لي إلاّ أن أموت على فراشي، وما من عمل شيء أرجى عندي

بعد أن لا إله إلاّ الله من ليلة بِتّها وأنا متترس، والسماء تهطلني بمطر إلى صبح حتى نغير على الكفار، ثم قال: إذا أنا متّ فانظروا في ملابسي وفرسي فاجعلوه عدة في سبيل الله».

إن هؤلاء الأبطال تربّوا في مدرسة محمد عليه السلام، وقد أثارت بطولتهم شاعرية أبي دلف الخزرجيّ فقال:

فنحن الناس كل النا س في البر وفي البحر
أخذنا جزية الخلق من الصين إلى مصر
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكفر

وما أعجب كلمة القائد الأعلى لحصن «نابليون» الذي اقتحمه جيش عمرو بن العاص فاتح مصر يقول:

«لقد شهدت حرب هؤلاء ـ أعني المسلمين ـ في مواطن كثيرة، إنهم يخرجون إليك كأنهم سراب الصحراء لا تدري من أين جاءوا؟ ثم تراهم ينصرفون عنك حتى لا نسمع عنهم شيئاً، كأنهم غاصوا في رمال الصحراء، ثم ما يلبثون أن يعودوا إليك وأنت لا تتوقع عودتهم كأنهم أشباح لا تعوقهم مادة هذه الأرض»(١).

لا تعجب أيها القائد، فإن السر وراء هذا النصر الكبير

(١) انظر من الدراسات الإسلامية للباحث ١٣، ١٤.

إنما هو في العقيدة التي تربط المجاهد بالسماء أكثر من أن تربطه بالأرض فهو مقاتل سماوي.

ومن أجل هذا فإن عمر بن الخطاب كان يخشى على المقاتل المسلم من ضعف هذه الرابطة السماوّية، لأنها لو ضعفت لما أغنى السيف شيئاً.

ولهذا فإن عمر بن الخطاب كان يوصي جيوش المسلمين بهذه الوصية الرائعة: «إنكم إنما تفضلون المشركين بطاعة الله، فإن ساويتموهم في المعصية تفوقوا عليكم بكثرة عددهم وعدّتهم».

وقد استلهم (مونتوجومري) قائد الجيش الثامن الإنجليزي وصية عمر فقال في خطبته أمام الجيش الثامن يوم ٤ مارس ١٩٥٢: «ويقيني أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى. إن خطر الانحطاط الخلقي في أفراد الجيش أعظم من خطر العدو، ولذلك لا ننتصر في معركة إلّا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شي»[1].

ومن هذا المنطلق، فإن الجهاد لن يكون جهاداً يؤتي أكله إلّا إذا كان في سبيل الله، فقد ورد الحديث الشريف أن أعرابيّاً قال للنبي عليه السلام: «الرجل يقاتل للمغنم،

---

(١) انظر هذا النص في مجلة الأزهر إبريل ١٩٧١.

والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله؟»، قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

أليس معنى ذلك أن العقيدة هي الميزان الصحيح لكل ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو خطوة في سبيل الله؟.

هذه مجمل المعالم لأثر العقيدة في المجتمع، فإذا ما تحققت هذه المعالم وامتزج بعضها ببعض كونت ذلك المجتمع المنشود، وأعادت للأمة الإسلامية كرامتها الضائعة، واستقلالها المفقود.

إننا في بداية القرن الخامس عشر الهجري نحتفل بقدومه اليوم ونحن ننظر إلى المستقبل نظرة ملؤها الأمل والرجاء في أن يتحقق للإسلام عزّته، في أن تكون كلمة الله هي العليا، في أن يكون للأمة الإسلامية دورها القياديّ في هذه الحياة. وقبل أن أختم هذا البحث أحب أن أضع على طريق القرن الخامس عشر لقافلة الإسلام والمسلمين هذه الأمنيات التي أرجو الله أن يحققها:

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الإمارة) نقلاً عن كتاب: الجهاد في سبيل الله لأبي الأعلى المودودي ١٧.

دعاء ورجاء

١ ـ ارتباط المسلمين بقرآنهم، فالقرآن الكريم مصباح هذه الأمة وحياتهم لن تكون منيرة إلاّ إذا ساروا على هديه، ونهجوا سبيله.

٢ ـ الإخلاص في العلم والعمل، فالاخلاص تنعكس آثاره على الأمة، فتتحول من ضعف إلى قوة ومن ذل إلى عزّة.

٣ ـ التآخي في الله، فالأخوة تحول المؤمنين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.

٤ ـ الانغماس في العلم والمعرفة لنخرج من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان وليس العلم علوم الدين فحسب، ولكنه إلى جانب ذلك علوم الحياة حتى لا تظل عجزة مشلولين أمام حضارة العلم التي تنبعث من أوروبا وأمريكا، وتوردها لنا، وننظر إليها في دهشة واستغراب مع أننا روادها الأوائل.

٥ ـ القضاء على الخلافات المذهبية فما دام القرآن الكريم كتاب هذه الأمة وهو كتاب واحد، فلا داعي لشن الحرب من أجل الخلاف في فرعيات لا تخرج المسلم عن إسلامه أو المؤمن عن أيمانه.

٦ ـ ولنتذكر دائماً كلمة ابن خلدون حينما قال في الفصل الرابع الذي عقده تحت عنوان: «إن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدين».

قال: «وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية، واتفاق الأهواء على المطالبة، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه، قال تعالى: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾(١).

وسِرُّه أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا حصل التنافس وفشا الخلاف.

وإذا انصرفت إلى الحق، ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله اتحدَت وجهتها، فذهب التنافس، وقل

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٣.

الخلاف، وحسن التعاون والتعاطف، واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة[1].

٧ - امتزاج الدين بالعلم، فليس هناك مدارس دينية ومدارس مدنية، فالمدرسة مدرسة عليها أن تمزج الدين بالدنيا أو بعبارة أخرى علوم الدين بعلوم الدنيا فليس في الإسلام إلا كلمة العلم التي تشير إليها أول كلمة نزلت من القرآن العظيم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ومن هنا نستطيع أن نخرج أجيالاً تحمل المشاعل مشاعل الدنيا والدين.

٨ - الدعوة إلى الجهاد جهاد النفس، وجهاد الحياة، وجهاد العدو، والإسلام عمود الجهاد، لأن كل حركة من حركة الإنسان في هذه الحياة اتجه بها إلى السماء أو حولها إلى الأرض هي جهاد ما دامت النية صادقة والإخلاص متوافراً، وما قعد قوم عن الجهاد إلا أذلهم الله، وبدد شملهم.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2].

---

(١) انظر: المقدمة ٢/ ١٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١١٠.

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[2].

٩ ـ الإتحاد: لأن المسلمين أخوة قرابتهم قرابة الروح للروح، والقلب للقلب وهم على اختلاف أقطارهم وتباعد ديارهم إخوة، وما دام الإسلام أباً لهذه الأمة، فلا بد أن يعتصم الأبناء بحبله، أمّا التفرقة فإن الإسلام يبغضها لأنها إذا أصابت أمة جعلتها كالرميم لا يرجى لها حياة، ترمى بالعزلة ولا تحس، وتداس كرامتها ولا تشعر، وتساق إلى الهوان ولا تثور، وبمقتضى هذه الوحدة من أبناء الأمة وحدة العقيدة، ووحدة الوجدان، ووحدة المشاعر تستطيع الأمة إذا حزّ بها أمرٌ أو ألمّ بها خطب أو انتابتها أزمة أن تتماسك لإعادة البناء وإزالة العدوان.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ٣٣.

فهرس الآيات القرآنيّة

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النّساء

سورة التّوبة

سورة يونس

سورة يوسف

سورة الرّعد

سورة الحجْر

سورة النَّحل

سورة الإسراء

سورة الكهف

سورا الفرقان

سورة النَّمل

سورة العنكبوت

فهرس الأحاديث الشريفة

المراجـــع

١ ـ الاتجاهات الحديثة في الإسلام: للأستاذ محمد بهجت الأثري، المطبعة السلفية.

٢ ـ آراء أبي بكر بن العربي الكلامية: للدكتور عمار طالبي، الشركة الوطنية، الجزائر.

٣ ـ الإســلام في مـواجهــة التحـديــات المعــاصــرة: لأبي الأعلى المودودي، دار القلم، الكويت.

٤ ـ الإسلام المفترى عليه بين الشيوعية والرأسمـالية: للشيخ محمد الغزالي، دار البيان، الكويت.

٥ ـ الإسلام والطاقات المعطلة: للشيخ محمد الغزالي، طبعة ثـالثة، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٦ ـ الإسلام يتحدى: لوحيد الدين خان، تعريب ظفر الإسلام خان، دار البحوث العلمية، الكويت.

٧ ـ أضواء على السنة المحمدية: للأستاذ محمود أبو رية، مطبعة دار التأليف، القاهرة.

٨ ـ إعجاز القرآن: مصطفى صادق الرافعي، مطبعة الاستقامة، طبعة سادسة.

٩ ـ الله: تأليف سعيد حوى، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

١٠ ـ الله يتجلى في عـصــر العلم: تــأليـف نخبــة من الـعلمـاء الأمـريكيين، ترجمـة الدمـرداش عبدالمجيـد سرحـان، طبـع عيسى الحلبي.

١١ ـ الإيمان كما يصوره الكتاب والسنة: للدكتور علي عبدالمنعم، دار البحوث العلمية، الكويت.
١٢ ـ تجديد الفكر العربي: للدكتور زكي نجيب محمود، دار الشروق، بيروت.
١٣ ـ تدوين الدستور: لأبي الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٤ ـ تراث الإسلام لشاخت وبوزروت: ترجمة الدكتور حسين مؤنس وإحسان صدقي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.
١٥ ـ التعريفات: السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد، مطبعة الحلبي سنة ١٩٣٨.
١٦ ـ تفسير الألوسي: دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٧ ـ التفسير الكبير: للفخر الرازي، طبعة ثانية، دار الكتب العلمية، طهران.
١٨ ـ تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن»: لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٩ ـ تفسير ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٢٠ ـ التفسير والمفسرون: د/ محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، مصر.
٢١ ـ ابن تيمية حياته وعصره، آراؤه وفقهه: للشيخ محمد أبي زهرة، طبع ونشر دار الفكر العربي.
٢٢ ـ الجهاد في سبيل الله: لأبي الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٣ ـ الجوانب التوجيهية للعقائد والمثل في الإسلام: للشيخ محمد محمد المدني، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، بالقاهرة.

٢٤ ـ الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، لمحمد العروسي المطوي. نشر دار الكتب الشرقية ـ تونس.
٢٥ ـ الحسين أبو الشهداء: عباس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة.
٢٦ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد، دار الهلال، القاهرة.
٢٧ ـ دراسات إسلامية لأهم القضايا المعاصرة: للأستاذ عطية صقر، مؤسسة الصباح، الكويت.
٢٨ ـ دولة الفكرة: للأستاذ محمد فتحي عثمان، الدار الكويتية، الكويت.
٢٩ ـ رسائل الجاحظ: تحقيق الأستاذ عبدالسلام هارون.
٣٠ ـ العبودية: لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية، المكتب الإسلامي، بيروت.
٣١ ـ العدالة الاجتماعية في الإسلام: للشهيد سيد قطب، طبعة ثانية.
٣٢ ـ عقائد المفكرين في القرن العشرين: عباس محمود العقاد، دار الكتاب، عباس العقاد.
٣٣ ـ علم أصول الفقه: للشيخ عبدالوهاب خلاف، طبعة ثامنة، الدار الكويتية للطباعة والنشر.
٣٤ ـ الفلسفة القرآنية: عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٥ ـ في البدء كان الكلمة: خالد محمد خالد، مكتبة الأنجلو المصرية.
٣٦ ـ في الدين المقارن: محمد كمال إبراهيم جعفر، دار الكتب الجامعية، القاهرة.
٣٧ ـ قبسات من الرسول: للأستاذ محمد قطب، مكتبة وهبة القاهرة،

٣٨ ـ القرآن محاولة لفهم عصري ،د/ مصطفى محمود، دار المعارف.
٣٩ ـ القرآن نظرية عصرية جديدة بأقلام مجموعة من الكتاب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٤٠ ـ كنز الحقائق للمناوي: المطبعة العامرية العثمانية عام ١٣٠٥.
٤١ ـ لسان العرب لابن منظور.
٤٢ ـ المال والحكم في الإسلام: للشهيد عبدالقادر عودة، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
٤٣ ـ مجلة الأزهر، أبريل ١٩٧١.
٤٤ ـ مجلة المسلم المعاصر، نوفمبر ١٩٧٤.
٤٥ ـ مسلمون بلا مشاكل: عبد الرازق نوفل، دار الشروق، بيروت.
٤٦ ـ مشكلات القرآن: للإمام محمد عبده، دار مكتبة الحياة، بيروت.
٤٧ ـ معترك الأقران في إعجاز القرآن: للإمام جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة.
٤٨ ـ معجزة القرآن: للشيخ محمد متولي الشعراوي، الطبعة الثانية، كتاب اليوم، القاهرة.
٤٩ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبدالباقي، دار الشعب، بالقاهرة.
٥٠ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، طبع ليدن.
٥١ ـ مقام العقل عند العرب: لقدري حافظ طوقان، دار المعارف بمصر.
٥٢ ـ مقدمة ابن خلدون: دار الشعب بالقاهرة.
٥٣ ـ من الدراسات الإسلامية: د/ عبدالعال سالم مكرم، مؤسسة الصباح، الكويت.
٥٤ ـ المنقذ من الضلال: للإمام الغزالي، مكتبة الجندي بمصر.
٥٥ ـ وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي، طبعة ثامنة، دار الكتاب العربي.

٥٦ ـ نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٥٧ ـ النزعة العقلية في تفكير المعتزلة: علي فهمي خشيم، طبعة ثانية، الشركة العامة للنشر والتوزيع والأعلام.
٥٨ ـ نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون والدستور: لأبي الأعلى المودودي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فهرس الموضوعات

الفهـــارس

انتهى بحمد الله

تطلب جميع منشوراتنا من :

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٩٥٥٠١ - ص.ب ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران